لماذا تأخر المسلمون...؟

عند ما يستعرض الكاتب الآراء التى كتبها الباحثون عن تأخر المسلمين وأن يلم باستنتاجاتهم فى البواعث والعوامل التى أدت إلى ضعفهم وانحطاطهم يجد أن هذه الآراء والاستنتاجات تنقسم إلى قسمين متفادين متصادمين أحدهما وهو صادر من علماء مسلمين يعزو سبب تأخر الاسلام والمسلمين إلى انصرافهم عن دينهم وتركهم فروضه وتشريعاته وأخذهم بالقوانين الوضعية واسلام قيادهم لرجال من غير الأمة العربية لم يتغلغل الاسلام فى قلوبهم ولم تتأثر به عقولهم ، أما الرأى الآخر وهو صادر من بعض المستشرقين فيعزو سبب تأخر المسلمين إلى طبيعة دينهم وتعاليمه ومبادئه التى إذا كانت تصلح لعصره الأول فليست بصالحة على كل حال لتطور الانسانية ولعوامل الوعى ولطبيعة التقدم فى طور من الحياة بعد طور آخر .

وتقتضينا النزاهة ، وحب الحق ، والحرص على الاسلوب العلمى فى هذا البحث الخطير أن نلمس الأسس التى قام عليها كلا الرأيين والدوافع والشواهد التى أوحت لهما بتلك الاستنتاجات .

وأغلب الظن أن علماء الاسلام بنوا آراءهم هذه على أن الاسلام وهو الذى خلق من أمة جاهلة متنافرة غير آخذة بأى سبب من أسباب الحضارة أمة قوية كونت امبراطورية ضخمة لم يعرف العالم لها مثيلا وذلك فى أقل من قرن ونصف قرن من الزمان ، هذا الاسلام الذى جعل من بنيه قادة للامم والشعوب ، والذى أمسك بيده مشعل الحضارة أجيالا عدة ليس هو السبب فيما أصاب المسلمين من ضعف وتأخر وانحطاط ورجعية وتواكل وجمود عن سير موكب الحضارة وإنما الاسلام فى جوهره وصفائه برىء كل البراءة فيما أصابه من انتكاس أتى على أيدى أبنائه ممن نبذوه جانبا فحقت عليهم الآية الكريمة وهى قوله عز وجل (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)

أو أتى على أيدى قادته من أسلموا زمامهم لأيد أجنبية لم تتأثر فى قليل أو كثير بروح الاسلام الحقة وتعاليمه الصحيحة وذلك فى آخر العصر العباسى الأول وهو بدء الانحلال السافر الظاهر للعيان وعلى رأس هؤلاء العلماء الاستاذ الامام محمد عبده.

وكما رسمنا لأنفسنا منهجنا فى الدراسة فى موضوعات هذا الكتاب وهو عرضنا أمام القارىء الصور والمقدمات والنتائج التى تتصل بما نعالجه من موضوعات من طرف ثم ما يضاد ذلك كله من الطرف الآخر محتفظين برأينا ندلى به فى حينه بعد هذا العرض والسرد فاننا نحب أن نصطنع هنا هذا الأسلوب فيما يتصل بهذا الموضوع الشائك الدقيق لنخرج برأى مقارب لمنطق الحوادث ولمنطق الأشياء ولطبيعة الحياة لأن غايتنا فى هذا البحث العثور على الحقيقة ومعرفة الصواب دون نظر الى أن تكون النتيجة متفقة مع إرضاء شعورنا الدينى أو مضادة لإرضاء ذلك الشعور.

وها نحن أولاء ننقل بعض فقرات من كتاب « الإسلام والنصرانية » للاستاذ الامام الشيخ محمد عبده تصور ما يذهب إليه علماء الاسلام ومفكروه فى هذا الشأن.

قال الأستاذ الامام :

كان الاسلام دينا عربيا ، ثم لحقه العلم فصار علما عربيا بعد أن كان يونانيا ثم أخطأ خليفة فى السياسة فاتخذ من سعة الاسلام سبيلا إلى ما كان يظنه خيرا له ، ظن أن الجيش العربى قد يكون عونا لخليفة علوى لأن العلويين كانوا ألصق ببيت النبى صلى الله عليه وآله وسلم فأراد أن يتخذ له جيشا أجنبيا من الترك والديلم وغيرهم من الأمم التى ظن أنه يستعبدها بسلطانه ويصطنعها بإحسانه فلا تساعد الخارج عليه ولا تعين طالب مكانه من الملك ، وفى سعة أحكام الاسلام وسهولته ما يبيح له ذلك . هنا لك استعجم الاسلام وانقلب عجميا

« خليفة عباس أراد أن يصنع لنفسه ولخلفه ، وبئس ما صنع بأمته ودينه أكثر من ذلك الجند الأجنبي وأقام عليه الرؤساء منه فلم تكن إلا عشية أو ضحاها حتى تغلب رؤساء الجند على الخلفاء واستبدوا بالسلطان دونهم ، وصارت الدولة فى قبضتهم ، ولم يكن لهم ذلك العقل الذى راضه الاسلام ، والقلب الذى هذبه الدين ، بل جاءوا إلى الاسلام بخشونة الجهل يحملون ألوية الظلم . لبسوا الاسلام على أبدانهم ، ولم ينفذ منه شيء إلى وجدانهم ، وكثير منهم كان يحمل إلهه معه يعبده فى خلوته ، ويصلى مع الجماعات لتمكين سلطته ، ثم عدا على الاسلام آخرون كالتتار وغيرهم ومنهم من تولى أمره ، أى عدو لهؤلاء أشد من العلم الذى يعرف الناس منزلتهم ، ويكشف لهم قبح سيرهم ! فمالوا على العلم وصديقه الاسلام ميلتهم ، أما العلم فلم يحفلوا بأهله ، وقبضوا عنه يد المعونة ، وحملوا كثيرا من أعوانهم أن ينتظموا فى سلك العلماء ، وأن يتسربلوا بسرابيله ليعدوا من قبيله ، ثم يضعوا للعامة فى الدين ما يبغض إليهم العلم ويبعد بنفوسهم عن طلبه ، ودخلوا عليهم وهم أغرار من باب التقوى وحماية الدين ، زعموا الدين ناقصا ليكملوه ، أو مريضا ليعللوه ، أو متداعيا ليدعموه ، أو يكاد أن ينقضى ليقيموه .

« نظروا إلى ما كانوا عليه من نخفخة الوثنية . وفى عادات من كان حولهم من الأمم النصرانية ، فاستعاروا من ذلك للاسلام ما هو براء منه ، لكنهم نجحوا فى اقناع العامة بأن فى ذلك تعظيم شعائره ، وتفخيم أوامره ، والغوغاء عون القائم ، وهم يد الظالم ، فخلقوا لنا هذه الاحتفالات ، وتلك الاجتماعات وسنوا لنا من عبادة الأولياء والعلماء والمتشبهين بهم ما فرق الجماعة ، وأركس الناس فى الضلالة ، وقرروا أن المتأخر ليس له أن يقول بغير ما يقول المتقدم وجعلوا ذلك عقيدة حتى يقف الفكر وتجمد العقول . ثم بثوا أعوانهم فى أطراف الممالك الاسلامية ينشرون من القصص والاخبار والآراء ما يقنع العامة بأنه لا نظر لهم فى الشئون العامة ، وأن كل ما هو من أمور الجماعة

والدولة فهو مما فرض فيه النظر على الحكام دون من عداهم ، ومن دخل فى شىء من ذلك من غيرهم فهو متعرض لما لا يعنيه ، وأن ما يظهر من فساد الأعمال ، واختلال الأحوال ، ليس من صنع الحكام ، وإنما هو تحقيق لما ورد فى الأخبار من أحوال آخر الزمان ، وأنه لا حيلة فى إصلاح حال ولا مآل ، وأن الأسلم تفويض ذلك إلى الله ، وما على المسلم إلا أن يقتصر على خاصة نفسه ، ووجدوا فى ظواهر الألفاظ لبعض الأحاديث ما يعينهم على ذلك ، وفى الموضوعات ، والضعاف ما شد أزرهم فى بث هذه الأوهام ، وقد انتشر بين المسلمين جيش من هؤلاء المصلين ، وتعاون ولاة الشر على مساعدتهم فى جميع الأطراف ، واتخذوا من عقيدة القدر مثبطا للعزائم ، وغلا الأيدى عن العمل ، والعامل الأقوى فى حمل النفوس على هذه الخرافات إنما هو السذاجة وضعف البصيرة فى الدين وموافقة الهوى ، أمور إذا اجتمعت أهلكت ، فاستتر الحق تحت ظلام الباطل ، ورسخ فى نفوس الناس من العقائد ما يضارب أصول دينهم ويباينها على خط مستقيم .

« هذه السياسة ، سياسة الظلم وأهل الأثرة ، هى التى روجت ما أدخل على الدين مما لا يعرفه ، وسلبت من المسلم أملا كان يخترق به أطباق السموات وأخلدت به إلى يأس يحاور به العجماوات ، فكل ما تراه الآن مما تسميه إسلاما فهو ليس بإسلام ، وإنما حفظ من أعمال الاسلام صورة الصلاة والصوم والحج ومن الأقوال قليلا منها حرفت عن معانيها ؛ ووصل الناس مما عرض على دينهم من البدع والخرافات إلى الجمود الذى ذكرته وعدوه ديناً ، نعوذ بالله منهم ومما يفترون على الله ودينه فكل ما يعاب الآن على المسلمين ليس من الاسلام ، وإنما هو شىء آخر سموه اسلاماً » انتهى .

ويرى الدكتور هيكل باشا فى كتابه الفاروق عمر الجزء الثانى .

« أن العوامل التى كان لها أثر فى قيام الحضارة الاسلامية ، وفى عظمة الأمبراطورية فى القرون الأولى قد كان لها كذلك عظيم الأثر حين بدأت عوامل الانحلال تدب فى كيان الأمبراطورية »

وهو يعنى بهذه العوامل أن رقعة الفتح الاسلامى حينما اتسعت وشملت الفرس والروم لم يعدن أهل هذه البلاد التى لها قدمة والتى لها سابقة فى الحضارة والرقى بأن يحتضنوا العرب ويظهروهم على مالهم من تجارب ونظم ، وما كونوه من تراث فى الفن والفلسفة والآداب ، تأثرت بها الحضارة الاسلامية ، وقامت على دعائمها الامبراطورية العربية .

ثم يتابع هيكل باشا كلامه فيقول « كيف يؤدى تفاعل عوامل بذاتها إلى آثار متناقضة فيكون سببا فى قيام الامبراطورية وعظمتها ، ثم يكون سببا فى تدهورها وانحلالها ؟ ؟

الجواب عن هذا السؤال يصدق على الامبراطورية الاسلامية ، وعلى غيرها من الامبراطوريات ، فكم هذه العوامل ، ومبلغ تفاعلها ، يختلفان فى زمن عنهما فى زمن آخر ، وهذا الاختلاف يؤدى إلى تباين النتائج ذلك أمر طبيعى نشهده فى الظواهر الاجتماعيـــة كما نشهده فى الظواهر الطبيعية ، فكما يؤدى اختلاف الأنواع والمقادير فى العناصر الكيمائية إلى اختلاف تفاعلها وما يترتب على هذا التفاعل من نتائج ، كذلك يؤدى اختلاف الكم والنوع فى فى العناصر الاجتماعية إلى مثل هذه النتيجة ، فاذا زادت القوى المعنوية فى الجماعة سواء أكانت هذه القوى روحية أم خلقية أم عقلية أدى تفاعلها مع القوى المادية إلى سمو الجماعة وعظمتهـــا ، ذلك بأن القوى المعنوية هى التى تدفعنا إلى طلب الكمال الإنسانى وإلى الدأب فى سبيله والجماعة مع ذلك لاغنى لها عن قواها المادية . ومضاعفة نشاطها . وهذه القوى تزداد نشاطا وإنتاجا بدافع من القوى المعنوية فاذا ضعفت معنوياتنا ضعف نشاطنا المادى وتضاءل إنتاجنا » .

هذه هى آراء بعض المفكرين الاسلاميين فى سبب تأخر المسلمين . والعوامل التى ساعدت على ذلك .

أما ما يرتكن إليه بعض المستشرقين فى رأيهم المضاد لذلك فيتلخص فى

أن عوامل الانحطاط ودوافع الانحلال . لم تكن طارئة على الاسلام أجنبية عنه دفع إليها دفعا رغما عن إرادته . وقسراً عن طبيعته مما لا حيلة له فيه بل كانت هذه العوامل والبواعث التى أدت إلى ضعف المسلمين وتأخرهم هى من تعاليم الاسلام ذاته . وإلا فكيف يتفق أن ينتظم هذا التأخر المسلمين جميعاً فى كافة المعمورة ويستنتج هؤلاء أساتيذهم من أن الاسلام أعطى ولى الأمر مقاليد المسلمين وجعل كافة شئونهم وأمورهم ملك يديه فشل بذلك حرية التفكير فى الفرد . وأعدم فيه رغبة النهوض والطموح الا فيما يرضى ولى الأمر ويتفق مع عقليته وأهدافه . حتى أن اسم الدين نفسه فيه معنى الاستسلام والانقياد وعلى رأس هؤلاء المستشرق « أجناس جولد تسيهر »

ويرى آخرون أن السبب فى تاخر المسلمين وانحلالهم يرجع إلى ما فى تعاليم دينهم من إيمان بالجبرية التى فيها دعوة صريحة إلى التواكل والخلود وعدم السعى فى الحياة وعلى رأس هؤلاء الكاتب الأمريكى «واشنجتون ايرفنج» الذى يقول ما ترجمته .

(لقد ألهم محمد مذهب الجبرية من وحى الساعة فكان إلهاماً معجزاً لحدوته فى أنسب أوقاته . فقد حدث توآ بعد غزوة أحد المنكودة التى ذهبت بأرواح عدد غير قليل من أنصاره . ومن بينهم عمه حمزة .. عندئذ وفى ساعة وجوم وهلع تحطمت أثناءها قلوب أصحابه المحيطين به أصدر هذا القانون بينهم أن لا مفر لإنسان من أن يتوفى فى ساعة أجله . فى فراشه كان أو فى ساحة الوغى .

أية عقيدة يمكن أن يصورها صاحبها أدق من هذا التصوير ليدفع بها للغزو طائفة من الجنود الجهلاء الأغرار دفعاً وحشياً . إذ يقنعهم عن يقين بالفيء لمن يبقى والجنة لمن يموت . ولقد جعلت هذه العقيدة جند المسلمين لا يكاد يغلبه غالب . لكنها احتوت كذلك السم الذى يقضى على سلطانه فمنذ اللحظة التى كف فيها خلفاء النبى عن أن يكونوا غزاة فاتحين . ومنذ أغمدوا

---

(١) راجع ذلك فى كتاب حياة محمد لهيكل باشا بعنوان (المستشرقون والحضارة الاسلامية)

سيوفهم بصفة نهائية بدأت العقيدة الجبرية تعمل عملها الهدام فقد أرهف المسلم أعصاب المسلمين كما أرهفها المتاع المادى الذى أباحه القرآن . والذى يفصل فصلا حاسما بين مبادئه ودين المسيح . دين الطهر والإيثار . فصار المسلم ينظر إلى ما يصيبه من بأساء على أنها بعض ما قدر الله عليه . وما يجب الإذعان له واحتماله ما دام كل جهد . وكل حكمة إنسانية عبثا لانفع له . ولم تكن قاعدة (أعن نفسك يعنك الله) مما يرى أتباع محمد تنفيذه . بل كان عكسها نصيبهم) .

هذان هما الرأيان اللذان تعرضا للبحث فى هذه المسألة الدقيقة غاية الدقة العميقة كأقصى ما يتصور العمق ورأينا أن كلا الرأيين غير صحيح . وان كان الرأى الأول يقرب من الحقيقة ويلمسها بعض الشىء . وإليك الدليل :

أن دعوة الاسلام كأى دعوة أخرى عالمية ناجحة لا بد أن تعتمد فى مبادئها ونظمها وقوانينها على أركان ثلاث الركن الخلقى والركن الاجتماعى والركن الاقتصادى . وأن يكون تشريعها بما فيه من واجبات وحدود مستمداً عناصر وجوده ومواد قوانينه من هذه الأركان الثلاث .

والاسلام بطبيعته كدين من الأديان يستند على دعامته الأولى وهى الدعامة الروحانية إلا أنه لم يغفل البتة هذه الدعائم الثلاث بل ان التقارب وطبيعة الدعوة الاسلامية آلفت بينها جميعا فتأثرت الأركان الثلاث وهى الركن الخلقى والركن الاجتماعى والركن الاقتصادى بالدعامة الأولى للاسلام وهى صفة الروحانية وبالتالى أثرت فيها فأظهرتها للناس بمظهر جديد لم يلمسوه فيما عرفوه من ديانات . وما آمنوا به من عبادات سابقة للاسلام ومن يراجع ما كتبناه فى فصل (مكانة الاسلام بين الديانات) يتبين له أن هذا الدين كان بمثابة ثورة فكرية على ما تواضع عليه الناس من قبل فى فهم العقيدة الالهية وما كونوه لأنفسهم من آراء عن طبيعة الدين ورسالته . ومدى الآثار المترتبة عليه فى حالتى الايمان أو الالحاد .

فالاسلام ولو أنه ينتظم مع هذه الديانات فى الإيمان بوجود الله وفى إحياء المبادىء الروحية . وفى الترغيب والترهيب والجزاء والعقاب إلا أنه يختلف عنها جميعا فى وسائله وغاياته الكاملة ونظرته للناس وللحياة .

ومن هنا ندرك السر فيما استنتجناه غير مرة فى هذا الكتاب وهو الصلة بين الديانات وبين ما بلغه الإنسان من تطور وإدراك .

لقد قلنا إن الديانات عنـــد ما كانت تتنزل على بنى البشر كانت تقتضيها ضرورة ملحة . وكانت تستوجبها أزمات عميقة تتطلب حلا وعلاجا . وهى من أجل ذلك لم تكن ترتفع عن مستوى البشرية . أو تتصادم وتتعارض مع قوة وعيها وإدراكها . وإنما كانت متفقة معها فيما بلغته من تطور . كاشفة لها عن آفاق جديدة لتكيف بها حياتها ولتهيء لنفسها ما تبغيه من استقرار وسمو واتزان .

والدارس لكل الديانات السماوية العالمية يجد أن ذاتياتها وصفاتها تؤرخ حالات مختلفة . وتسجل صوراً متباينة من تاريخ التطور البشرى فالصبغة التى كانت عليها الديانة اليهودية . والغايات التى جاءت لتحققها تختلف فى مجموعها عما كانت عليه المسيحية . وما تبغى الوصول إليه من غايات . كمـــا تختلف الديانتان الأخريان عن الصبغة التى اصطبغ بها الاسلام . وما كان ينشد تحقيقه من مبادىء ونظم ويسعى إليه من أهداف . لذلك لا يمكن أن يتفق أن تشغل أحد هذه الديانات الثلاث مكان الأخرى لأن ذلك يتنافى ومنطق الطبيعة . وسنة التطور فى الكائنات .

وعلى ضوء هذا الاستطراد سنسهب بعض الشيء فى شرح وبيان الأسس التى قام عليها الاسلام لنرى إلى أى حد كيف أدى انهيار بعض هذه الأسس إلى توالد الميكروبات والأمراض التى أخذت تعمل عملها فى القضاء على ما فى جسم الاســـلام من قوة وصحة وحيوية حتى تركته أخيراً فى مرحلة التأخر والإنحلال .

قلنا إن الاسلام فى صميم دعوته قام ليحقق للبشرية مبادىء ثلاثة تتمثل فيما وضعه من قواعد الأخلاق والاجتماع والاقتصاد . ودللنا على أن رسالته الروحية كانت تغذى هذه القواعد الثلاث ، وكانت دائبة دائماً على غرسها فى النفوس . فالعبادات التى شرعها الله للمسلمين هى بذاتها إيحاءات قوية لتثبيت هذه القواعد فى القلوب وتماسكها بالوجدان ، لأن هذه العبادات جميعها ليست إلا مظاهر من مظاهر الاسلام ، وليست إلا وسائل يحقق بها غاياته .

والركن الخلقى ظاهر وواضح فى الدعوة الاسلامية : فالقرآن يقول : (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) ويقول أيضا : (واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل) ويقول : (ولا تمش فى الأرض مرحا إنك ان تخرق الارض ولن تبلغ الجبال طولا) ويقول : (ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتى هى أحسن ، فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم) ويقول : (واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ، وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا) . ويقول (خذ العفو وأمر بالمعروف واعرض عن الجاهلين) ويقول (واصفح الصفح الجميل) ثم لم يجد صفة أروع ولا أعظم يمدح بها نبيه غير أن يقول : (وإنك لعلى خلق عظيم) .

والنبى عليه السلام يقول: (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه) ويقول أيضا : (مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد .. إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر) . ويروى أنه عليه السلام وهو فى مرض الوفاة خطب المسلمين فقال : (أيها الناس : من كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهرى فليستقدمنى ، ومن كنت شتمت له عرضا فهذا عرضى فليستقدمنه ومن أخذت له مالا فهذا مالى فليأخذ منه ولا يخش الشحناء فهى ليست من شأنى)

فالإيثار ، والصراحة ، والصدق ، والاعتدال فى كل شيء ، والضمير النقى ، والقلب النظيف ، والأمانة التامة ، والبعد عن الموبقات والفساد وكل أنواع الشرور الظاهرة والخفية .. كل ذلك من الصفات البارزة التى رسمها القانون الخلقى فى الاسلام . والتى جعلت تتحقق فى النفس الانسانية بما دعا إليه من تعاليم وعبادات . فاذا لم تتحقق هذه الصفات فى شعار الدولة وكانة شئونها

وفى سياسة الأمة ونفوس حكامها ورعاياها ، كان فى ذلك هدم وقضاء على أهم ركن من أركان الاسلام وهو الركن الخلقى .

والركن الثانى الذى اعتمدت عليه الدعوة الاسلامية هو الركن الاجتماعى ويتبين فيما أمر به القرآن ودعا اليه النبى من المساواة المطلقة بين الناس جميعاً ، وفى قضائه على ما تواضع عليه الناس من النظام الطبقى فى قوة وعنف ، وفى استئصاله كل ما اصطنعه العالم من وسائل التمييز بين الأجناس ورفع بعضهم درجات فوق بعض لا لعبقرية ولا لعمل مفيد صالح للمجتمع وللانسان ، وإنما لوشيجة العنصر ، وطبيعة الدم ! فأنكر الاسلام كل ذلك فى غير هوادة فالناس أمام القانون سواء فى الحقوق والواجبات والحدود ، وفى شعور بعضهم نحو بعض . فالله يقول فى كتابه الكريم : (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا . إن أكرمكم عند الله أتقاكم) أى أصلحكم وأنفعكم لنفسه ولقومه ولأمته . وقيل إن السبب فى نزول هذه الآية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بنى بياضة أن يزوجوا أبا هند امرأة منهم - وهو مولى لهم فقالوا يا رسول الله : نزوج بناتنا من موالينا ؟!! فنزلت هذه الآية الكريمة . وفى حجة الوداع يخطب رسول الله المسلمين فيقول (أيها الناس : إن ربكم واحد ، وان أباكم واحد كلكم من آدم ، وآدم من تراب ، ليس لعربى على عجمى فضل الا بالتقوى) .

وحينما سرقت فاطمة المخزومية - وكانت من طبقة رفيعة من العرب - جاء أناس يستشفعون لها حتى لا يقيم الرسول الحد عليها . فغضب عليه السلام غضباً شديداً ثم قال : (إنما أهلك من كان قبلكم أنهم اذا سرق الشريف تركوه ، واذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد . وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها) . .

بقى الركن الأخير وهو الركن الاقتصادى . . وهو ما شرعه من الزكاة ، وجعل لها قوة الحق المعلوم الذى لا سبيل الى التغاضى عن أدائه طوعا أو كرها . ثم ما سنه من التضامن الاجتماعى ومن مسئولية الدولة نحو الفرد :

فبيت مال المسلمين هو الخزينة العامة للدولة التى أنشئت لتراعى مصالح المسلمين ، فتتولى شئون المعدمين الذين لا مورد ولا عائل لهم ، والذين تقعد بهم الظروف أو تقعد بهم حالتهم الجسمانية عن العمل والكسب . وهو نوع مما سماه العلماء الاجتماعيون حديثا : « التأمين الاجتماعى ضد البطالة وضد العجز والشيخوخة » .

وولى الأمر باعتباره راعيا ، وكل راع مسئول عن رعيته ، فى عنقه تحقيق مصالح الأمة وتوطيد كيانها ، وتجديد حيويتها وشبابها . فالاسلام باعتباره دين ودولة احتفل كل الاحتفال بالناحية الاقتصادية ، وكانت له نظرته الخطيرة فى علاقات الناس المادية بعضهم مع بعض . فهو لم يحرم الملكية المطلقة التى تأتى ثمرة لمجهود شخصى بحت دون استغلال لظروف خاصة ، ودون استغلال للغير بلا مقابل وبوسائل الإكراه والضغط . . وإنما أقرها بشرط أن تتفق مع ما رسمه ودعا اليه من قوانين أخـــلاقية واجتماعية . . ذلك أن الظاهرة الواضحة فى الاسلام أن أركانه وأسسه التى قام عليها متصل بعضها ببعض اتصالا وثيقا بحيث لو تلاشى أحد هذه الأركان أو الأسس كان فى ذلك القضاء كل القضاء على روح الاسلام ولبه وجوهره .

لم يحرم الاسلام الملكية التى تأتى عن طريق هذه الوسائل الشريفة لأنه فى تكوين عناصره ومبادىء دعوته كان يؤمن بالفرد . وكان يعترف بما له من قوة وحيوية وإرادة . ثم إنه بعد ذلك كله أتى حافزا لعوامل اليقظة والنشاط ، باعثا الحيوية والقوة والأمل فى نفس الانسان لاستغلال خـــيرات الأرض والانتفاع بظواهر الطبيعة . ولكنه مع ذلك أوجب الضريبة التى تتمثل فى الزكاة . وهذه الزكاة كانت فى العهد النبوى الأول صدقة يترك أمرها لضمير الغنى وعاطفته نحو الفقير والمسكين . ولكن بعد أن كثر المسلمون وانتشر الاســلام فى الجزيرة العربية ، رفعت من ذلك الدور وجعل لعمال يأخذونها من أصحابها . . وذلك لمـــا ركب فى الغريزة البشرية من حب للأثرة والغلبة والامتياز .

ومن هنا ندرك السر فى أن الاسلام كان يحرص من وراء ذلك على عدم خلق الطبقات ، وعلى عدم وجود هذه الفروق الفاحشة بين الجماعة الاسلامية فيمن يملك كثيرا وفيمن لا يملك شيئا . وذلك لأنه لم يوجب هذه الزكاة إلا بعد أن أصبح المسلمون كأمة وكمجتمع له كيانه ومظهره واستقلاله . . وهى المقومات الخاصة لوجود الدولة .

بقى بعد ذلك أن ننظر فى أى مرحلة من مراحل التاريخ الاسلامى اعتدى على هذه الأركان الثلاث لنبسط من وراء ذلك الأسباب الحقيقية التى أدت الى تفكك الامبراطورية الاسلامية وانحلالها .

ويقتضينا الأسلوب العلمى فى العرض ، وطبيعة هذا البحث أن نلم إلماما يسيرة بحالة المسلمين وما كان يكتنف حياتهم ويكمن فى نفوسهم من عوامل الانفعال بهذا الدين الجديد وذلك بعد موت النبى مباشرة .

فمما لا شك فيه ، ومما أجمع عليه المؤرخون أن المسلمين ذهلوا لما علموا بوفاة النبى ، وأنه اعترتهم حالة من الفزع الشديد والحيرة البالغة ، لأنهم وإن كانوا قد أحسوا أن النبى قد أدى رسالته ، وأن الله قد أكمل لهم دينهم بعد نزول هذه الآية الكريمة : (اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الاسلام دينا) . إلا أنهم لم يكونوا يظنون أن النبى سيتركهم فى هذه الفترة الخطيرة من حياتهم ، وقبل ان يعين له خليفة من بعده يأخذ بيدهم ، ويكون لهم سندا من هذه الأعاصير التى كانت تتذبذب لهم فى الداخل وتحيط بهم من الخارج . .

ولن نستطيع أن نتصور مقدار الحالة التى كان عليها المسلمون بعد علمهم بهذا النبأ الفاجع دون أن ندرك ما حدث لعمر بن الخطاب من اضطراب وذهول وثورة نفسية .. فلقد وقف عمر فى المسجد يخطب المسلمين ، ويندد بمن يقول إن النبى قد مات ، ويتوعدهم بعقاب شديد . والمسلمون بعضهم يستمع له وبعضهم يعرض عنه ، إلى أن جاء أبو بكر الصديق ـ هذا الشيخ المحنك السمح الرزين ـ فوجد المسلمين فى المسجد فى صخبهم وضوضائهم وفزعهم الأكبر . .

فصعد المنبر ، ثم خطب الناس فى ثبات وهدوء بقوله : « أيها الناس ، من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات . ومن كان يعبد الله فان الله حى لا يموت . ثم تلا قوله تعالى : (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل . أفإ ن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ؟! ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين) » .

سمع عمر هذه الآية ولم يكن واعيا لها ، فخر الى الارض مغشيا عليه لأنه آمن بموت النبي حقيقة . ولكنه لم يستسلم للجزع ، وانما تحمل المصاب الفادح بما عرف عنه من صبر وقوة وإيمان .

وهدأ اضطراب المسلمين بعض الشيء ، وأخذوا يفكرون فى مصيرهم بعد أن رفع النبي الى الرفيق الاعلى . فاجتمع الانصار فى سقيفة بنى ساعدة يتداولون الأمر فى أحقيتهم بالخلافة بعد رسول الله لأنهم هم الذين آووا النبي ونصروه وأعزوه بعد أن كرهه قومه وطاردوه وحملوه على الهجرة فراراً من اعتدائهم وظلمهم وتعسفهم . وعلم عمر بذلك ، فأرسل إلى أبى بكر يستدعيه وهو يجهز النبي ليسجيه مضجعه الاخير . ولم يقبل أبو بكر أن يترك جهاز النبي لغيره من أهله إلا بعد إلحاح من عمر شديد ، لأن عمر كان يخشى أن تندلع نار الفتنة بين المسلمين ، وكان يفزع من أن يتطرق الى وحدتهم أى عامل من عوامل التفرق والاصطدام .

واصطحب عمر وأبو بكر معهما أبا عبيدة بن الجراح حيث ذهبوا جميعا الى اجتماع الانصار فى سقيفة بنى ساعدة . وأدلى الانصار بحجتهم فى أنهم أولى بالخلافة لإعزازهم النبي ونصرهم له ، واحتضانهم الاسلام بعد أن طارده المشركون وتنكرت له الاغلبية الساحقة من قريش ... ورد عليهم أبو بكر بهذا الخطاب الذى يتمثل فيه النبل والخلق الكريم والحرص مع ذلك على العدل والتمسك بالحق . قال : « أيها الانصار . نحن المهاجرون أول الناس اسلاما ، وأكرمهم أحسابا ، وأوسطهم دارا ، وأحسنهم وجوها ، وأكثرهم ولادة فى العرب ، وأمسهم رحما برسول الله . أسلمنا قبلكم ، وقدمنا فى القرآن عليكم ،

فقال تبارك وتعالى : (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان) فنحن المهاجرون وأنتم الانصار إخواننا فى الدين وشركاؤنا فى الفىء ، وأنصارنا على العدو . أما ما ذكرتم فيكم من خير فأنتم له أهل ، وأنتم أجدر بالثناء من أهل الارض جميعا . فأما العرب فلن تعرف هذا الأمر إلا لهذا الحى من قريش . فنحن الأمراء ومنكم الوزراء » ثم قدم اليهم أبا عبيدة بن الجراح وعمر بن الخطاب ليبايعوا أيهما شاءوا . فلم يكن من عمر الا أن طالب من أبى بكر أن يبسط يده ليبايعه وهو يقول : « ألم يأمرك النبى بأن تصلى أنت يا أبا بكر بالمسلمين ؟ فأنت خليفته ونحن نبايعك فنبايع خير من أحب رسول الله منا جميعا » وبايعه أبو عبيدة بن الجراح وهو يقول : « إنك أفضل المهاجرين ، وثانى اثنين إذ هما فى الغار ، وخليفة رسول الله على الصلاة أفضل دين المسلمين . فمن ذا الذى ينبغى له أن يتقدمك أو يتولى هذا الأمر عليك ؟ » ثم تتابع بعد ذلك المهاجرون والأنصار فبايعوا أبا بكر .

إلى هنا أصبح أبو بكر هو والمسلمين الشرعى . فلننظر الى أى حد تمسك بروح الاسلام وحافظ على تعاليمه ، وماذا كان حظه من الحرص الدقيق على هذه الأركان الثلاث التى قلنا إن دعوة الاسلام قامت عليها . ولن نجد شيئا يدلنا على تمسك أبى بكر بهذه القواعد الخلقية التى دعا اليها الاسلام ، والتى تمثل بها رسول الله فى حياته أقوى من هذا الخطاب الذى استهل به أبو بكر ولايته قال : « أيها الناس :

« إنى قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فان أحسنت فأعينونى ، وان أسأت فقومونى . الصدق أمانة ، والكذب خيانة . والضعيف فيكم قوى عندى حتى أرد عليه حقه إن شاء الله ، والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه إن شاء الله . ألا لا يدع قوم الجهاد فى سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل ، ولا تشيع الفاحشة فى قوم إلا عمهم الله بالبلاء . أطيعونى ما أطعت الله ورسوله فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم . قوموا الى صلاتكم يرحمكم الله »

أنظر الى هذه الشخصية الجبارة فى غير عنف ، القوية فى اعتدال ، التى

التزمت هذه التبعات ، وتمسكت بقواعد الأخلاق المثالية التى لم ير العالم ولن يرى أروع وأنبل منها . انظر الى تصوير هذه العلاقة بين الوالى ورعيته التى صورها والتزمها الخليفة الأول للمسلمين — هل تجد فى سموها وعظمتها شيئا مما أصطنعته الحضارة الحديثة من نظام وما تزعم بلوغه من رقى ؟ !

أما الركن الاجتماعى وهو المساواة المطلقة فى الحقوق والواجبات — فنجد أبا بكر من أقوى الحريصين عليه ، المتمسكين به لا فيما بين الرعية بعضهم مع بعض فقط ، وإنما فيما بينه وبين الرعية جميعا . انظر الى هذا الرجل خليفة المسلمين وولى أمرهم وهو يشيع جيش أسامة الذاهب الى الشام لمحاربة الروم ، وأسامة راكب فرسه — وهو شاب لما يكد يبلغ العشرين — وهذا الشيخ السمح يسير بجانبه راجلا كأى جندى بسيط من جنود المسلمين !! .. فيناديه أسامة : يا خليفة رسول الله ! والله لتركبن أو لأنزلن ، فيرد عليه أبو بكر : « والله لا تنزل ووالله لا أركب . وما على أن أغبر قدمى فى سبيل الله ساعة . . » ثم ماذا بعد ذلك ؟ . . ثم يرجوه — إذا شاء — أن يدع له عمر بن الخطاب ليعينه ويشير عليه فى أمور المسلمين !! فيأذن له أسامة فى ذلك . . !!

ثم يتجلى تمسكه بهذا الركن الاجتماعى أوضح وأعظم فى مساواته بين الناس جميعا فى أعطياتهم من الفىء — لا فضل لأحد على أحد . ولما راجعه بعض الصحابة فى ذلك وراودوه على أن يجعل لمن لهم القدمة والسابقة فى الاسلام الحظ الأوفر من العطاء — قال لهم هذه الكلمة الخالدة : « أما ذكرتم من الفضل والسوابق والقدم فما أعرفنى بذلك ؟ وإنما ذلك شىء ثوابه على الله جل ثناؤه . وهذا معاش ، فالأسوة فيه خير من الأثرة » .

بقى بعد ذلك الركن الاقتصادى . ولسنا فى حاجة لأن نؤكد لك تمسك الصديق به فى غير هوادة ولا تساهل ، وبمعناه الذى شرعه الله وعمل به رسوله فلقد حدث بعد موت النبى مباشرة أن تبلبلت الأفكار وتشعبت الفتن فى أنحاء الجزيرة العربية ، وامتنع قوم ممن أسلموا عن أداء الزكاة وإن ظلوا بعد ذلك مسلمين ولم يرتدوا عن دينهم . وجمع أبو بكر الصحابة واستشارهم فى أمرهم

فأشار بعضهم بتركهم ما داموا ينطقون الشهادتين ويؤمنون بالله ورسوله ، ويؤدون فروض الاسلام الأخرى . ورأى البعض الآخر أن فروض الاسلام متماسكة بعضها ببعض ، فلو عطل أحدها كان فى ذلك هدم لبقية الفروض الأخرى . ولذلك وجب محاربتهم .

ثم إن هذه الزكاة هى حق بيت المال ، وبيت المال هو المسئول الأول عن الضعفاء والعجزة والمعدمين ومن لاعائل لهم من فقراء المسلمين . ولذلك نرى أبا بكر يوافق على الرأى الأخير ، ويقف من هذه المسألة موقفا رائعا كله صرامة وشدة فيقول : « والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدونه الى رسول الله لقاتلتهم عليه » . ولما راجعه عمر بن الخطاب بقوله : « كيف نقاتل الناس وقد قال رسول الله : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله . فمن قالها عصم منى ماله ودمه إلا بحقها . وحسابه على الله)؟ رد عليه بقوله : « والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق المال ، وقد قال : إلا بحقها »

أرأيت اذاً كيف تمسك أبو بكر بهذا الركن حتى أعلن الحرب من أجله وجعلها مشروعة كمشروعية حرب المرتدين والمشركين . ذلك أنه رأى أن التهاون فى تعطيل ركن من أركان الاسلام - فضلا عن أن فيه زعزعة من قوة العقيدة فى النفوس - فإن فيه اهداراً وضياعا لحق من حقوق الفقراء والمعدمين والمحرومين من فقراء المسلمين ، مما حدا بعمر أخيرا أن يتحمس لمحاربة مانعى الزكاة ، وأن يقول « والله ما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبى بكر للقتال فعرفت أنه الحق » !..

هكذا كان تمسك الخليفة الأول بهذه الأركان الثلاث كما رأيت ، فلننظر ماذا كان حظ الخليفة الثانى عمر بن الخطاب من ذلك . . . ويقيننا الذى لا يتطرق إليه الشك أن السمات التى اتصف بها الاسلام ، والذاتيات التى ميزته عن غيره وظهر بها فى وضوح وجلاء وقوة : عاملا فى سبيل الحق ، مقدسا العدل المطلق متسللا الى أعماق النفس البشرية ، دارساً الدوافع الخفية فى ضمير الإنسان ، غير

غافل عن تكوينه المادى ، وحياته الواقعية ـ نعتقد أن هذه الصفات والسمات والذاتيات التى ذكرنا كأنها كانت متبلورة فى نفس عمر ، مستترة وراء عقله الباطن حتى تهيأت لها الظروف ، ووجدت المناسبات فبرزت لتعمل عملها وتنهض بما يجب أن تنهض به من تقديس للحق ، ومن تمسك بالعـــدل المطلق على أى صورة من الصور ، وبأى وجه من الوجوه .

ونستطيع أن نلمس شيئا من ذلك فى تصرفات عمر وأخـــلاقه وإيحاءاته النفسية التى كان يخالف بها الرسول وغيره من الصحابة ؛ فينزل الوحى مؤيداً رأيه . . كما حدث فى أمر أسرى بدر ، وكما حدث فى أمر نساء النبى حينما طلب منه عليه السلام أن يحتجبن فنزل الوحى مؤيداً له فى ذلك أيضا . وكما حدث فى تحريم الخمر ، حينما طلب من الله أن يبين للمسلمين فيها لأنها تذهب العقل والمال فنزل الوحى بالتحريم فى قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه .. الخ الآية) .

وفيما روى من أن النبى بعث * أبا هريرة يبشر بالجنة من شهد أن لا إله إلا الله مستيقنا بها قلبه . فلما سمعه عمر رده الى رسول الله رداً عنيفا ، وذهب فى أثره يسأل رسول الله أحق قد بعثه يبشر الناس هذه البشرى ؟ فلما أجاب رسول الله أن نعم ، قال عمر : « فلا تفعل فإنى أخشى أن يتكل الناس عليها فخلهم يعملون » فأخذ رسول الله برأيه وقال : فخلهم .

هذه كلها أشياء تدلنا على نفسية عمر ، ومدى إدراكه للحقائق ، وفهمه للأمور ، ونظرته للناس والأشياء والحياة . والشىء الذى نريد أن نخرج به من تلك الإلمامة اليسيرة هو أن الخليفة الثانى عمر فى قوة شخصيته وفى نضوج عقله واجتهاد رأيه قد حافظ على هذه الأركان الثلاث محافظة دقيقة بكل ما ترمى اليه هذه الكلمة من معنى . وقد أضفى عليها من روحه ونضوج عقله واجتهاد رأيه ما جعل لها قوة الغريزة فى نفوس المسلمين ، وما جعلها سنداً وعماداً

---

* راجع كتاب (الفاروق عمر) لهيكل باشا ص ٧ جزء أول

لنشأة هذه الامبراطورية وقوتها وحيويتها وقيادتها للعالم . ذلك أن الظاهرة الواضحة فى قيام الامبراطوريات وعظمة الأمم وتصدرها لقيادة البشرية هى ما ترسمه لنفسها وتستظهر بها على غيرها من قواعد خلقية واجتماعية واقتصادية تتفق مع الحق وتتمشى مع العدل المطلق .

وعمر بن الخطاب وهو الذى اتسعت فى عهده رقعة الفتوح الإسلامية ، وتزعزعت أمام قوات المسلمين بنايات الامبراطوريتين الفارسية والرومانية ، ودخل العرب بلاداً غريبة عنهم ، لأهلها قدمة وسابقة فى الحضارة . . ومع ذلك نجد جميع المؤرخين من مسلمين ومستشرقين يجمعون على أن أهل هذه البلاد التى كانت خاضعة للفرس والروم كانوا يعجبون من أمر هؤلاء البدو الذين لم يأخذوا بحظ يذكر من الثقافة ، ومع ذلك يتخلقون بأخلاق عالية غاية فى السمو والرقى : من حب للعدل ، وتقديس للحق ، وإيمان بالمبدأ ، والتضحية فى سبيله والتمسك به . ! ومن أن فتحهم للبلاد وغزوهم للأمم لم يكن لاستغلالها وإنما كان لإصلاحها ، ولم يكن لاستعبادها وإنما كان للنهوض بها خلقيا واجتماعيا واقتصاديا . . حتى أن البلاذرى يروى أن عمر بن الخطاب لما ذهب الى الشام لإبرام معاهدة الصلح : « ... وعند مقدمه الجابية من أرض دمشق مر بقوم مجذومين من النصارى ، فأمر أن يعطوا من الصدقات ، وأن يجرى عليهم القوت »

ونظرة فاحصة لبنود معاهدة الصلح التى أبرمها مع أهل المقدس فى كتابه الذى كتبه لهم ـ والذى سجله الطبرى ـ ما يكفى فى الدلالة على كل ذلك :

(بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان . أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم ، ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حيزها ولا من صليبهم ولا من شىء من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم ، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود . وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص

فمن خرج منهم فهو آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن أقام منهم فهو آمن وعليه ما على أهل إيلياء من الجزية . ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلى بيعهم وصلبهم فإنهم على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم . ومن كان بها من أهل الأرض فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ، ومن شاء سار مع الروم ، ومن شاء رجع الى أهله . وإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم . وعلى ما فى هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين - إذا أعطوا الذى عليهم من الجزية).

هذه كلها مقدمات لم يكن لنا بد من أن نقدمها لك لتتصور عهد عمر - وهو العهـــد الذى استقامت فيه المقومات الواضحة ، والأسس الظاهرة لنهوض الامبراطورية الإسلامية وتوجيهها للعالم وقيادتها له . ولكننا نرجع فنذكر لك بشيء من التوضيح ما أقامه عمر من قواعد الخلق والاجتماع والاقتصاد .

لقد خشى بعض المسلمين شدة عمر وغلظته وقسوته - بعد أن أوصى له بالخلافة أبو بكر الصديق - وبعد أن بايعه المسلمون . وكأن عمر أحس فى هذه الساعة - بما طبعت عليه نفسه عن الرأفة والقسوة معا ، وبما تتبلج به خواطر المسلمين - فصعد المنبر بعد أن فرغ المسلمون من مبايعته ثم خاطبهم بهذا الخطاب الذى يبين لك نفسيته وأخلاقه وقوة شخصيته ومدى صراحته . . قال :

* (بلغنى أن الناس هابوا شدتى ، وخافوا غلظتى ، وقالوا : قد كان عمر يشتد علينا ورسول الله بين أظهرنا ، ثم اشتد علينا وأبو بكر والينا دونه فكيف به وقد صار الأمر اليه ؟! . ومن قال ذلك فقد صدق .

. . إنى كنت مع رسول الله فكنت عبده وخادمه ، وكان من لا يبلغ أحد صفته من اللين والرحمة ، وكان - كما قال الله - « بالمؤمنين رءوفا رحيما . » فكنت بين يديه سيفا مسلولا حتى يغمدنى أو يدعنى فأمضى . فلم أزل مع رسول

---

* الفاروق عمر ص ٩٦ جزء أول

الله حتى توفاه الله وهو عنى راض، والحمد لله على ذلك كثيرا ، وأنا به أسعد .

.. ثم ولى امر المسلمين أبو بكر ، فكان من لا تنكرون دعته وكرمه ولينه فكنت خادمه وعونه ، أخلط شدتى بلينه ، فأكون سيفا مسلولا حتى يغمدنى أو يدعنى فأمضى . فلم أزل معه كذلك حتى قبضه الله عز وجل وهو عنى راض فالحمد لله على ذلك كثيراً وأنا به أسعد .

.. ثم إنى وليت أموركم أيها الناس . فاعلموا أن تلك الشدة قد أضعفت ولكنها إنما تكون على اهل الظلم والتعدى على المسلمين . فأما اهل السلامة والدين والقصد فأنا ألين لهم من بعضهم لبعض ، ولست أدع أحداً يظلم احد أو يتعدى عليه حتى أضع خده على الأرض ، وأضع قدمى على الخد الآخر حتى يذعن للحق . وإنى بعد شدتى تلك أضع خدى على الأرض لأهل العفاف وأهل الكفاف .

.. ولكم على أيها الناس خصال أذكرها لكم فخذونى بها :

.. لكم على أن لا أجتبى شيئا من خراجكم ولا ما أفاء الله عليكم إلا من وجهه . ولكم على إذا وقع فى يدى ألا يخرج منى إلا فى حقه . ولكم على أن أزيد أعطياتكم وارزاقكم ان شاء الله تعالى ، وأسد ثغوركم . ولكم على ان لا ألقيكم فى المهالك ، وألا أجمركم فى ثغوركم ، وإذا غبتم فى البعوث فأنا أبو العيال .

.. فاتقوا الله ـ عباد الله ـ وأعينونى على انفسكم بكفها عنى ، وأعينونى على نفسى بالأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، واحضارى النصيحة فيما ولانى الله من أمركم . اقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم) .

هكذا استهل الفاروق عهده بهذه السياسة التى رسمها لنفسه ؛ وبهذا الدستور الذى قدمه للمسلمين . والشىء الذى نحب ان نسجله هنا هو أن نجاح الدعوة الاسلامية وقوتها وعظمتها وانتشارها بهذه السرعة الهائلة كان يقضى بوجود أبى بكر الصديق على رأس المسلمين فى المرحلة التى تركهم النبى فيها وآثر الرفيق

الأعلى ـ فشخصية أبي بكر في تكوينها وفيما طبعت عليه من تمثل لكل اعمال الرسول ، ومن تفان شديد مسرف في شخصيته عليه السلام ، ومن تحر دقيق في كل ما يقدم عليه من اعمال حتى يكون ذلك متفقا اتفاقا شديداً مع فعل النبي او قوله، حتى انه يقف ومعه القلة من المسلمين في وجوب محاربة مانعي الزكاة ، ويقول كلمته المشهورة : (والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم عليه) . وحتى أنه يتردد بعض التردد لما أشار عليه عمر بجمع القرآن لأنه لم ير الرسول يفعل ذلك . وحتى انه ـ والثورات تلعب بذيلها لتهدد الجزيرة العربية ـ ينفذ جيش أسامة الى الشام ؛ لأن الرسول كان يريد ذلك . !! بالرغم من حاجته الشديدة المسلحة الى وجود هذا الجيش بجانبه لتثبيت دعائم الأمن في ربوع الجزيرة العربية ! هذه الشخصية بما طبع فيها من كل هذه المميزات والصفات تختلف اختلافا شديدا عن شخصية عمر ـ عن قسوته وشدته وصرامته على نفسه وعلى غيره من المسلمين ، وعن استقلاله في الرأي واجتهاده في القول .

ويخيل الينا أننا لو وضعنا الفاروق مكان الصديق ، أو لو وضعنا الصديق مكان الفاروق لكنا كمن وضع الشيء في غير محله . ولترتب على ذلك ما يكون من وضع شيء في غير محله من هذه النتيجة الطبيعية من التقلقل والتصدع الذي يؤدي حتما الى الانهيار .

فالظروف الأولى في طبيعتها وتكييفها للحوادث التي نشأت عن وفاة النبي كانت توجب للقيادة شخصية كشخصية أبي بكر في رقتها وليونتها ومحافظتها محافظة حرفية دقيقة على روح الاسلام ، وعلى ما كان يأخذ به رسول الله المسلمين في أمور دينهم ودنياهم .

أما الظروف في المرحلة الثانية ـ وهي التي اتسعت فيها رقعة الفتح الاسلامي وورث العرب الامبراطورية الفارسية والرومانية ، ووجدوا امامهم حياة تختلف عن حياتهم البدوية ، بل وجدوا أنفسهم فجأة وعلى حين غرة وقد تهيأت

لهم الظروف ، وأصبحت ملك أيديهم الوسائل ليحيوا الحيـــاة التى كان يحياها عاهلا الفرس والروم؛ وما فيها من إغراق فى الترف، ومن اندفاع شديد مسرف نحو الشهوة ، ومن فتنة لهم عن دينهم وما فيـه من مثل عليـا خلقية واجتماعية واقتصادية كلفوا بالحرص على تحقيقها فى أنفسهم وفى نفوس غيرهم من الناس ـ أقول إن هذه الظروف كانت تقضى وتحتم بأن يكون على رأس المسلمين شخصية كشخصيـة عمر فى عدله المطلق ، وفى قسوته الشـديدة فى سبيـل الحق ، وفى مرونته واجتهاده فيما يعن له وللمسلمين من أمور ، وفى إلمامه بكل صغيرة وكبيرة من شئون رعاياه حتى ما يكون من أخص خصائصهم ، وفى رقابته الشديدة على عماله فى كافة الأمصار ومحاسبتهم حسابا عسيراً وعدم التساهل معهم فى شىء . .

وتقريرنا لهذا المبدأ ليس اعتباطاً منا ؛ وإنما هو شىء ضرورى لنجاح أى دعوة او إخفاقها . فطبيعة الدعوة واستعداد الشخص القائم بها أو القائم عليها من أقوى العوامل فى تقرير مصير هـذه الدعوة من القوة أو الضعف ، ومن الإخفاق أو النجـاح .

هذه هى القواعد الخلقية ، ومدى تمسك عمر بها كما صور ذلك فى خطبته ، ثم فيما ذكرناه لك فى هذه الأشياء التى جاءت فى ثنايا الحديث عنه .

أما نظرته الاجتماعية ـ وهى التى خالف بهـا الصديق من عدم المساواة المطلقة فى الأعطية ـ فلا يمكن أن نحملها على ان عمر كان يقر نظام الطبقات ، ولا يمكن أن نستدل من ذلك على عدم إيمانه بالمساواة المطلقة التى دعا إليهـا الاسلام وعمل بها رسول الله فى حياته ، وحافظ عليها خليفته الأول من بعده .

إننا نستطيع أن نستدل على نظرة عمر الى هذه المسألة من رده على ابنه عبد الله لما سأله واستفسر منه ـ كيف يفرض لأسـامة بن زيد خمسـة آلاف من العطاء ويفرض له ألفين ، وقد شهد من الغزوات مالم يشهد أسامة ؟! قال عمر لابنه : (إن أسـامة كان أحب الى رسول الله منك ؛ وأبوه أحب الى رسول الله من أبيك) !! .

إذاً فنظرة عمر الى هذه المسألة لم تكن إلا فى هذه الحدود الضيقة الموقوتة وهى القرب من الرسول أو البعد عنه . ولم تكن تشريعاً عاما يعمل به ويستند اليه ، وإنما كانت كما ارتأى هو فى العطاء : (لا أجعل من قاتل رسول الله صلى الله عليه وسلم كمن قاتل معه) .

فأخلاق عمر وطباعه النفسية وتصوره للناس وللحقائق والحياة تتنافى مع ميله لوجود الطبقات . وتنهض دليلا قويا على إيمانه بالمساواة المطلقة التى لا يحدها حد ولا يقيدها قيد .

ونظرة يسيرة الى ما كان يأخذ به نفسه ، ويعالج به شئون المسلمين . . تبين لك ما اصطبغت به نفسه من حب للمساواة فى الحقوق والواجبات وفى كافة الشئون الأخرى . فليس موقفه من عمرو بن العاص حينما اشتكى اليه قبطى من مصر اعتداء ابن عمرو على ابنه بغريب على من قرأ المبادىء المبسطة فى التاريخ الاسلامى .

ثم موقفه من جبلة بن الأيهم حينما كان يحج . وبينما هو يطوف بالبيت وطىء إزاره رجل من بنى فزارة فانحنى ، فرفع جبلة يده فهشم أنف الفزارى . فاشتكاه الى عمر . فدعا عمر جبلة وسأله ، فاعترف بما حدث . فقال عمر لجبلة (قد أقررت فإما أن ترضى الرجل وإما أن أقيده منك) . وأنكر جبلة ما سمع وقال (وكيف ذلك وهو سوقة وأنا ملك ؟!) قال عمر (إن الاسلام جمعك وإياه ، فلست تفضله بشىء إلا بالتقى والعافية) قال جبلة (قد ظننت ياأمير المؤمنين أن أكون فى الاسلام أعز منى فى الجاهلية) قال عمر (دع عنك هذا ، فانك إن لم ترض الرجل أقدته منك) قال جبلة (إذاً أتنصر) قال عمر (اذا تنصرت ضربت عنقك لأنك أسلمت ، فان ارتددت قتلتك)

فلما رأى جبلة الصدق من عمر قال (أنا ناظر فى هذا ليلتى هذه ، ثم اتخذ الليل ستارا له وفر هاربا الى الشام .

وحينما كان يذكر عمر بلالا ـ مؤذن الرسول عليه السلام ـ وعتق أبى بكر له يقول : (أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا)

وليس من يؤمن بتفاوت الطبقات هو الذى يقول :

(والله لئن جاءت الأعاجم بالأعمال وجئنا بغير عمل ، فهم أولى بمحمد منا يوم القيامة . فان من قصر به عمله لا يسرع به نسبه)

ثم ليس من النظام الطبقى فى شىء أن يكون حظ ابن خليفة المسلمين وولى أمرهم أقل من حظ شاب مثله ـ كأسامة بن زيد ـ فى العطاء . ولما يستفسر ابن الخليفة والده فى ذلك ـ وقد أبلى فى الجهاد ما لم يتوفر لأسامة ، يكون رد هذا الوالد عليه : (لقد كان أسامة أحب الى رسول الله منك ، وأبوه أحب الى رسول الله من أبيك) .

فكل هذه السمات والمظاهر والصور التى تتراءى من وراء ذلك لا تدل إلا على أن ما فعله عمر لم يكن إلا نوعا من التمجيد لذكرى الرسول ، ولم يكن إلا صورة صادقة لعاطفة المحبة والإكبار لذاته الكريمة عليه السلام . يدلنا على ذلك ما انتواه عمر وما أفصح عنه فى أخريات أيامه من أنه سيسوى فى العطاء بين المسلمين ، وأنه سينهج نهج أبى بكر فى ذلك ، ولو أن المنية وافته ولم يحقق ما أراد .

أما سياسة الفاروق الاقتصادية ورقابته الشديدة على عماله فى كافة الأمصار وانفاقه المال فى السبيل التى رسمها الاسلام ـ فلقد ضرب فى كل ذلك أروع المثل .

اقرأ هذه الفقرة من خطبته التى استهل بها عهده :

(.. ولكم على أيها الناس خصال أذكرها لكم فخذونى بها :

.. لكم على أن لا أجتبى شيئا من خراجكم ولا ما أفاء الله عليكم إلا فى حقه . ولكم على ان أزيد عطاياكم وأرزاقكم إن شاء الله تعالى ، وأسد ثغوركم

ولكم على ألا ألقيكم فى المهالك ، وألا أحرمكم فى ثغوركم . وإذا غبتم فى البعوث فأنا أبو العيال) .

ثم انظر بعد ذلك ماذا كان موقفه فى المعاهدة التى أبرمها أبو عبيدة ابن الجراح مع أهل دمشق ومن تعديله لبعض بنودها وأحكامها هذا التعديل الذى ينبئنا عن قوة عقله ومدى نظرته للأمور وتصرفه فيها على مبادىء الحق . وعلى سنن العدالة الاجتماعية فقد جعل أبو عبيدة بن الجراح (الجزية(١) ديناراً وكيلا معينا من الحنطة على كل رأس وزيتاً وخلا لقوت المسلمين . هذا خلاف الضرائب التى كان الدمشقيون يدفعونها لحكامهم من الروم فقد ظلوا يدفعونها لمن قام على حكمهم من المسلمين .

أبلغ أبو عبيدة عهد الصلح عمر بن الخطاب فكتب اليه بتعديله . وذلك بأن فرق بين الطبقات فى الجزية ، إذ جعل على الأغنياء أربعة دنانير عن كل رأس ، وأربعين درهما على من دونهم ، وقيل بل جعلهم طبقات على قدر غنى الغنى ، وإقلال المقل ، وتوسط المتوسط) .

ثم كان موقفه فى منتهى الحزم والقوة . وفى غاية من النضج الاقتصادى والوعى الاجتماعى عندما اجتهد برأيه ونظر إلى بعيد . وقدر النتائج على المقدمات ولم يقبل أن تقسم الأرض بين الجنود الفاتحين الغازين كما هو الشأن فى القيم المنقولة . ذلك أن المتعارف عليه وما قرره الشرع الحكيم أن ما يجلب من الغنيمة كان يرسل خمسه إلى أمير المؤمنين . وتوزع أربعة أخماسه بين الجنود المنتصرين عملا بقوله تعالى (واعلموا أنما غنمتم من شىء فإن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل) وقد فهم المسلمون أن القيم الثابتة مثل القيم المنقولة مما ينطوى تحت هذه الآية الكريمة . ومما يكون غنيمة يصدق عليها ما يصدق على غيرها من الغنائم ولذلك لما

---

(١) انظر كتاب الفاروق عمر لهيكل باشا ج أول .

(فتح(١) المسلمون أرض السواد بالعراق أرادوا قسمتها على هذا النحو يكون خمسها لبيت المال ، ويقسم سائرها بين الجند الذين اشتركوا فى فتحها وخالفهم عمر رأيهم فى قسمة الأرض وقال : فكيف بمن يأتى من المسلمين فيجدون الأرض بعلوجها قد قسمت وورثت عن الآباء وحيزت ! ما هذا برأى قال عبد الرحمن بن عوف : الأرض والعلوج إلا ما أفاء الله عليهم ! أى على الفاتحين ورد عليه عمر : ما هو إلا كما تقول ، ولست أرى ذلك ، والله ما يفتح بعدى بلد فيكون فيه كبير نيل ، بل عسى أن يكون كلا على المسلمين . فإذا قسمت أرض العراق بعلوجها وأرض الشام بعلوجها فماذا تسد به الثغور وما يكون للذرية والأرامل بهذا البلد وبغيره من أرض الشام والعراق !

لم يسترح الفاتحون إلى قول عمر : فأكثروا عليه وقالوا : أتقف ما أفاء الله علينا بأسيافنا على قوم لم يحضروا ! أما عمر فأصر على رأيه ولم يزد على أنه قال: هذا رأيي . فلما رأوا إصراره عليه قالوا : فاستشر . فجمع المهاجرين الأولين فاختلفوا : بقى عبد الرحمن بن عوف على رأيه أن تقسم لهم حقوقهم ، ورأى عثمان وعلى وطلحة رأى عمر ، وأرسل عمر إلى عشرة من كبراء الأنصار وأشرافهم . خمسة من الأوس . وخمسة من الخزرج . وقال لهم « إنى لم أزعجكم إلا لتشتركوا فى أماناتى فيما حملت من أموركم فإنى واحد كأحدكم وأنتم اليوم تقرون بالحق . خالفنى من خالفنى . ووافقنى من وافقنى . ولست أريد أن تتبعوا هذا الذى هو هواى ، فلكم من الله كتاب ينطق بالحق فوالله لئن كنت نطقت بأمر أريده ما أريد به إلا الحق ! » قالوا : « قل نسمع يا أمير المؤمنين » قال عمر : « قد سمعتم كلام هؤلاء القوم الذين زعموا أنى أظلمهم حقوقهم ، وإنى أعوذ بالله أن أركب ظلما ! لئن كنت ظلمتهم شيئا هو لهم ، وأعطيته غيرهم لقد شقيت ، لكنى رأيت أنه لم يبق شىء يفتح بعد أرض كسرى . وقد غنمنا الله أموالهم وأرضهم وعلوجهم فقسمت ما غنموا من أموال بين أهله وأخرجت

---

(١) راجع كتاب الفاروق عمر ج ثانى

الخمس فوجهته على وجهه . وأنا فى توجيهه وقد رأيت أن أحبس الأرضين بعلوجها . وأضع عليهم فيها الخراج . وفى رقابهم الجزية يؤدونها فتكون فيئاً للمسلمين : المقاتلة والذرية ولمن يأتى بعدهم . أرأيتم هذه الثغور لا بد لها من رجال يلزمونها ! أرأيتم هذه المدن العظام ، لا بد لها من أن تشحن بالجيوش ، ولا بد من لها إدرار العطاء عليهم ! فمن أين يعطى هؤلاء إذا قسمت الأرض والعلوج ؟! »

هذا هو رأى عمر وما فيه من صراحة وقوة واجتهاد . ونظرة بعيدة إلى مستقبل الإسلام والمسلمين . وما تكون عليهم حالتهم لو أطاع هؤلاء الجند إلى ما يريدون ولذلك لم يلبث هؤلاء الأنصار العشرة أن قالوا « الرأى رأيك فنعم ما قلت . وما رأيت ! إن لم تشحن هذه الثغور وهذه المدن بالرجال وتجرى عليهم ما يتقوون به رجع أهل الكفر إلى مدنهم » .

إلى هنا نكتفى بهذا القدر . ونقف برهة متأملين فيما عرضناه من صور تفصح عن روح الإسلام فى مراحله الثلاث الأولى وهى عصر النبى وعصر الصديق أبى بكر وعصر الفاروق عمر . وقد رأينا كيف نمت روح الإسلام فيها جميعاً وكيف ترعرعت ونضجت وكملت فى مظهرها وجوهرها . وأصبح لها سلطان . كسلطان الغريزة فى النفوس . والعقيدة فى القلوب . وذلك لم يكن إلا بفضل ما أفاء الله به على نبيه من قوة الشخصية . ومن صفة العبقرية ثم بفضل ما أتيه كل من الخليفتين الأولين من طبيعة ومن إلحاحات نفسية كانت تختلف فى كل منهما بعض الشىء . ولكنها على كل حال كانت تتفق وطبيعة المشاكل وعلاجها . وكانت شخصية كل منهما واعية تماماً لسيكولوجية النفوس والحوادث . وما يترتب عليها من آثار . فتعمل لها عملها وتحسب من أجلها حسابها ، وتأخذ بناصيتها . فتتحكم فيها وتوجهها نحو الصالح العام . ولا تجعل لها أدنى سيطرة عليها فى أى شأن من الشئون أو أمر من الأمور .

ولكننا عندما نترك هذه المراحل الثلاث لنستقبل مرحلة أخرى من مراحل التاريخ الإسلامى نجد أن الاسلام قد تزحزح بعض الشيء عن مكانته . وقد فرط بعض الشيء فى جوهره الذى ظل محافظا عليه محافظة دقيقة بكل ما ترمى إليه هذه الكلمة من معنى فكانت سبله ووسائله تختلف فى معالجة الحوادث والقضاء فى الأقضية ، والإجتهاد فى التشريع ولكن جوهره لم يمس أبداً ، ولم يتساهل أى خليفة من الخليفين السابقين فى أن يمس جوهره ويعتدى على أى ركن من أركانه أدنى تساهل .

ولكن فى هذه المرحلة التى تولى فيها زمام الخلافة عثمان بن عفان نجد التوفيق الذى لازم الإسلام فى عهد الخليفتين السابقين قد تخلى عنه فى عهد الخليفه الثالث ونجد أن الاسلام فقد فى هذه المرحلة أقوى ما كان يعتمد عليه فى شخصية قائده من صفات وسمات تتفق مع قوة نهضته وتطوره ومن تكافؤ للتغلب على ما كان يعترض سبيله من صعاب . ويلم به من أحداث ، ونستطيع هنا أن نبرز الدليل على صحة نظريتنا التى اثبتناها فى هذا الفصل وهى أن العامل القوى فى نشر الدعوة الاسلامية ونموها وقوتها بهذه السرعة التى لم يرو التاريخ لها مثيلا لم يكن لما فى الدعوة من حق وعدل . ومبادىء حضارية فقط ، وإنما كان أيضاً لشخصية ممثل الدعوة وقائدها : ومقدار حظه من الوعى لطبيعة الحوادث وعلاجها والتغلب عليها أثر كبير فى ذلك .

فطبيعة الصديق أبى بكر كانت تتفق كما قلت وطبيعة الدعوة الاسلامية . بعد أن رفع النبى إلى الرفيق الأعلى ، وذلك لما تنطوى عليه شخصيته من رفق ولين ورحمة ، ومن تمثل شديد قوى . لكل فعل ، أو قول عن رسول الله عليه السلام ، فكان شعاره فى كل شيء ما أثر عنه من قوله (إنما أنا متبع ولست بمبتدع) وذلك لأن الدعوة لم تكن قد تأصلت بعد فى نفوس كل العرب . ولم تكن الظروف القاسية التى أحاطت بالمسلمين بعد وفاة النبى — ولم يكث عليه السلام بعد اكماله الدعوة بينهم كثيراً — تقبل أى تغيير ولو كان طفيفا فما كان

يأخذ به المسلمين فى أمور دينهم ودنياهم ، ولم يكن صالح الدعوة يسمح بأى تزحزح أو تحلل ولو كان يسير عن سمات وطبيعة عصر النبى عليه السلام .

أما فى عصر الفاروق . وهو الذى وعى فيه العرب الدعوة الاسلامية على حقيقتها . ووطد الاسلام أركانه ، وتغلب على ما كان يتذبذب أمامه من عوامل الارتداد والنكسة واتسعت الفتوح الاسلامية حتى اخضع العرب لسيطرتهم ما كانت تنتظمه أمبراطوريتا فارس والروم من أمم وشعوب تختلفان فى الأمزجة والطباع وتتنافران فى سبل الحياة ، ووجدت مع هذا الفتح عوامل الاغراء للشهوات المدنيا ، وعوامل الفتنة عن الدين . ثم ما كان يتطلبه سرعة هذا الفتح واتساعه وتباينه لكل ذلك كانت شخصية عمر وما تتميز به من شدة وقوة وعدل ومضاء واجتهاد هى الشخصية التى تتكافأ وطبيعة الدعوة ومستلزمات هذه الفترة من حياة الاسلام .. ! ولكننا عندما ننظر إلى ما بعد ذلك نجد فى غير مشقة ولا عسر أن قوة الشخصية . وتكافأها على طبيعة الظروف والأشياء ووعيها للحقائق وترتيبها النتائج على المقدمات لم تكن كما كنا نرجو فى قوة شخصية أبى بكر وعمر . ومن هذه النقطة الأولى وهى ضعف شخصية الخليفة الثالث عثمان بن عفان تبرز أمامنا أشياء فى غاية الخطورة وفى منتهى النكر أمام نظرة الاسلام فما لاشك فيه أن الاسلام حارب العنصرية فى نفوس العرب فى غير هوادة ولا شفقة . وهناك آيات كثيرة من القرآن الكريم ، واحاديث نبوية موثوق بصحتها انكرت العنصرية والتفاخر والتعالى بالآباء والأنساب وكان هذا من الأسس الثلاث التى اعتمدت عليها الدعوة الاسلامية . وهو الركن الاجتماعى ، وقد اسهبنا فى شرحه فيما سبق ، ولكن هذا الشبح المخيف بعد أن حورب فى نفوس العرب وقضى عليه قضاء تاما فى عهد النبى وأبى بكر وعمر أصبح يطل بوجهه الكئيب من جديد فى عهد عثمان وتغلبت الطبيعة الجاهلية الغاشمة وهى التعصب والتعالى بالعنصرية فى نفوس العرب على طبيعة الاسلام السمحة الصافية ، وكان من أثر ذلك أن فرط

الخليفة الحاكم بعض الشيء فى أهم ركن من أركان الاسلام .

ولسنا ندين لمن يقولون بأن العرب لم يكن لهم مفر من الرجوع إلى هذه العصبية العنصرية بعد أن ظهر لهم فى وضوح لا يقبل الشك هذه المؤامرة الفارسية التى كان ضحيتها عمر بن الخطاب . ولكن مهما يكن من شيء فإن هذه الحادثة فى خطورتها وهى قتل الخليفة لم تكن تبرر أبداً التضحية ولو بعض الشيء بأهم ركن من أركان الاسلام . وبأن يترك العرب يتخلقون بأخلاقهم الأولى فى بداوتهم وجاهليتهم ، وكان من أثر ضعف هذه الشخصية وعدم تكافؤها وماورثته من مسائل جسام ، ومن مشاكل متعددة استتبعت اتساع الفتح الاسلامى أن أصبحت أسرة عثمان هى كل شيء . وهى المسيطرة على شئون هذه الامبراطورية الناشئة .

ولسنا ندين كذلك لمن يبررون هذا المسلك من عثمان بما يشاهدون مثيله اليوم فى المذاهب السياسية المعاصرة ، وهو أن الحاكم إذا لم يستعن بأقاربه فهو يستعين حتما فى إدارة شئون الدولة برجال حزبه ممن يجمعهم وإياه مبدأ واحد وهذا إن لم يكن أقوى من القرابة فهو بمثابتها على الأقل . ثم إن أقرباء الانسان هم أولى الناس بالإئتمان على مصالح الدولة وأشدهم حرصا على التعاون معه فى تصريف شئونها ، والنهوض بها ، ولكننا ننكر هذا التعليل الواهى فى قوة وصراحة ، فالاسلام له ذاتيته الخاصة ، وفلسفته الجديدة التى كانت تنتفع بكل المواهب الخيرة فى الانسان دون نظر إلى خلقته أو مكانته فى المجتمع العربى ، والاسلام عندما أوجب التعامل والتعاون بين المسلمين ، وأن يحس بعضهم بإحساس بعض وعندما سن النبى الأخاء بين المهاجرين والأنصار كان يريد من وراء ذلك كله أن يوجد بين المسلمين رباطاً أقوى من رباط الأسرة وأن يجعلهم جميعاً كجسد واحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر فوجود هذه التعليلات هنا لا يتفق وهذا المجتمع الاسلامى الذى رباه النبى ونهض به أبو بكر وعمر .

ولسنا نريد من وراء كل ذلك أن نتهم عثمان فى إيمانه أو أخلاقه فإن هذا مما لا يمكن أن يرقى إليه الشك . إنما نتهم الفقر والضعف فى شخصيته . ونتهم نظره القصير الذى مهد سبيل الفتنة الكبرى أن تأخذ طريقها إلى الإسلام وإن كان هو لم يفكر فى ذلك . ولم يدر بخلده أى مصير ينتظره الإسلام من جراء سياسته هذه الضعيفة المضطربة . ومثل بسيط نسوقه هنا يدلنا على مدى ضعفه . وقصر نظره . وعـــدم إحاطته بكل شئون رعيته وتساهله الشديد المسرف مع عمالاته على الامصار حتى أصبحوا هم المسيطرون وحدهم على شئون الرعية يتحكمون فيها دون حسيب ولا رقيب،وهو أنه عندما تولى الخلافة عزل الولاة عن الامصار فى عهد عمر وولى مكانهم أقاربه وكان والى مصر فى عهده أخوه من الرضاعة عبد الله بن أبى سرح . وحينما تبين لعثمان أن الجباية قد زادت فى مصر عما كانت عليه فى عهد عمرو بن العاص بمقدار ألفى ألف دينار قال لعمرو « إن اللقاح بعدك قد درت ! » أجابه عمرو فى تهكم « لأنكم قد أعجفتم الفصلان ! » هذا مثل واحد نسوقه هنا ليدلك على ما كان يعتور المجتمع الإسلامى فى ذلك الوقت وما كان ينفعل به المسلمون فى كافة الأمصار مما مهد الطريق لانبعاث عوامل الفتنة التى كانت شراً وبلاء ونكبة على المسلمين ذلك أن على بن أبى طالب يوافقه فى ذلك أقاربه من البيت الهاشمى كان يرى أنه أحق الناس بالخلافة بعد موت النبى مباشرة ولم يكن إيمان على بذلك قائماً على أساس أن الخلافة تورث . وإنما كان قائما على أساس أن المهاجرين والأنصار عندما اختلفوا فى سقيفة بنى ساعدة فى أمر الخلافة كانت حجة المهاجرين فى أنهم أولى بالخلافة من الأنصار أنهم أهل النبى وأقرباؤه الأدنون . فلم إذاً لا يكون علياً أولى بالخلافة من هؤلاء المهاجرين أنفسهم وهو من البيت الهاشمى أولا وابن عم النبى وزوج ابنته فاطمة ثانياً . . ! إلا أن علياً وحزبه من المعارضين كانت تتغلب عليهم العاطفة الدينية . وكان يتغلب عليهم الإيمان القوى فى عهد أبى بكر وعمر فيلغون فى أنفسهم ذاتيتهم ويتغاضون

عما يعتبرونه حقا وواجباً لهم ما دام فى ذلك خير الاسلام وعزه ومجده ممثلا فى صلاح ، وقوة ، شخصية خليفة المسلمين، وولى أمرهم .

أما فى عهد عثمان . وقد استشرى فيه الداء . وأصبح تذمر المسلمين واضحا فى كل أنحاء الأمبراطورية ، وذلك لضعفه ولينه وعدم سيطرته على الأمور ، فقد ظهر حزب على وأصبحت معارضته سافرة قوية فيما يعتبره منكراً وإثما فى حق الدين . وكان هذا هو أول الشر . وأولى النكبات التى منى بها الاسلام

هذا عرض سريع اسهبنا فى بعض مواضع فيه لأنه لم يكن لنا بد من هذا الاسهاب وذلك لنستظهر رأينا الذى نؤمن به وهو أن السبب الأول أو السبب الخفى المستتر فيما ادى بالمسلمين إلى التأخر إنما وجد فى عهد عثمان بن عفان . وهو تضحيته بركن خطير من أركان الدعوة الاسلامية وهو الركن الاجتماعى وما استتبع ذلك من وجود طبقة اروستقراطية . ومن وجود اناس شرهين لجمع المال. مكنزين له دون أن يسألهم الخليفة من اين لكم هذا . . ا ودون أن ينكر عليهم حياة الترف والبذخ التى كانوا يعيشونها فى غير اعتدال بل فى إسراف .

وربما يعن للقارىء هنا ان يسأل سؤالا وهو كيف يتفق ان يكون الباعث فى تأخر المسلمين قد نشأ فى عهد عثمان . وقد رأينا الأمبراطورية الاسلامية تنمو وتتسع فى عهده . وتضخم فتوحاتها فى عهد من خلفه من الأمويين . وجوابنا على هذا السؤال يستلزم أن نسأل سؤالا آخر وهو هل كان انتصار المسلمين على أعدائهم وهل كان اخضاعهم الإمبراطوريتين العظيمتين فارس والروم . لقوة تسليحهم . واستعدادهم المادى ، وفقر خصومهم فى كل ذلك . ام كان لروحهم المعنوية ولشعورهم بأنهم على حق . ا نعتقد ان التعليل الأول لا يؤخذ به لأن المتفق عليه ، والذى لم يختلف فيه أى مؤرخ من المؤرخين ان الأمة العربية كانت فقيرة جداً ليس لها أى حظ من المادة . كما أنها لم يتوفر لها من معدات الحرب مثل ما كان لفارس أو الروم ثم إن التعليل الثانى

ليس هو كل شيء . وإنما هناك عامل خطير جداً كان السبب القوى فى نصرة العرب على غيرهم من الأمم والشعوب . وهو أن تلك الأمم والشعوب التى اخضعها العرب لسلطانهم . كان قد نفد رصيدها من الخلق . وكانت قد فقدت ما تسعى إليه كل أمة ناهضة من أهداف . وما تتمثله من مثل عليا فى الحياة . وهكذا نجد أن اتساع رقعة الفتوح الاسلامية لا يرجع الفضل فيها إلى عثمان أو خلفاء بنى امية . وإنما يرجع إلى أن الاسلام فى عهد النبى وابى بكر وعمر كان قد قضى على كل ما أمامه من قوة . وكان قد تخطى كل ماوضع فى طريقه من سدود . وكان قد حطم كل مقاومة جدية تحد من مضائه ونفاذه حتى جاء عهد عثمان وما تبعه من عهود ولم يكن قد وجدت بعد أية مقاومة تستطيع أن تقف فى طريقه . ثم إنه ليس من السهولة بمكان أن يتأثر الاسلام فى يوم وليلة وهو هذا الطود الشامخ بما يتسرب إلى جسمه من جراثيم وأدواء . وإنما كانت عوامل الصحة والقوة والحيوية فيه تتغلب على هذه الجراثيم والأدواء دائما وإن كانت لم تستطع أن تقضى عليها القضاء الأخير . حتى قدر لها أخيرا أن تتجمع وتتكاثر وأن تقضى عليه هو قضاء لا هوادة فيه وذلك لما ارتكبه بعض خلفاء الأمويين والعباسيين من منكر وإثم فى حق الدين مما سنمر به عليك مراً سريعاً .

ذلك أن الأمويين بعد أن استتب لهم الملك بمقتل على . وبعد أن وطد معاوية سلطانه بهذا الخداع السياسى الذى سماه التحكيم . والذى لايمكن إلا أن يفزع منه الضمير الإنسانى . ويتقزز منه الخلق القويم ..! أقول بعد أن استتب السلطان لمعاوية بهذه الطريقة الشائنة لم يفرط فى سياسته بما اعتمدت عليه الدعوة الاسلامية من الركن الاجتماعى فقط . وإنما فرط أيضاً فى ركن آخر خطير وهو الركن الخلقى ، وما نسجله هنا من شواهد وبينات موثوق بروايتها أصدق دليل على ماذهب إليه . والشيء الذى لا يمكن أن يختلف فيه اثنان هو أن الدولة الأموية كان طابعها البذخ والترف كما كان طابعها بعث العنصرية

العربية فى نفوس العرب . . . وليست حياة الترف شراً فى ذاتها إذا كان يتمتع بهذه الحياة كل فرد من أفراد الأمة . وإذا لم يكن ذلك فيه عبث بأموال الخزينة العامة ـ وهو بيت المال فى ذلك الحين ـ وتبديد الأموال فى غير السبيل التى وجدت من أجلها .. ! ثم إنه ليس بعث العنصرية فى نفوس أمة من الأمم شراً كلها إلا إذا كان فى ذلك هضم لحقوق غيرها من الأفراد والجماعات . وما سنثبته هنا يدلل لنا على أن العهد الأموى بتمثيله حياة الأرستقراطية العربية . وحياة الترف بعد ما كان العرب زاهدين صادفين عن ملذات الحياة . نعتقد أن ذلك كان شراً محضاً بالنسبة لدعوة الاسلام . وما تحمله من فلسفة جديدة للعالم ومبادىء ومثل عليا للحياة ؛ لأن معاوية وابنه يزيد استطاعا بذلك القضاء على كل معارضة أمامهما ، ولم تسكن سبيلهما فى القضاء على هذه المعارضة شريفة كما سترى ، وإنما كانت أشبه شىء بالرشوة ، وشراء الذمم ، وغصب التأييد بما يقدم لأصحابها من ثمن من مال الدولة .. وهذا فيه إهدار لركن من أركان الإسلام وهو الركن الخلقى (فلقد(١) كان عطاء الحسن والحسين ابنى على بحسب ديوان عمر خمسة آلاف درهم فى السنة جعله معاوية مليوناً من الدراهم أى أنه ضاعفه مائتى مرة . وأعطى مثل ذلك لعبد الله بن عباس لأنه ابن عم النبى صلى الله عليه وسلم . وكذا عبد الله بن جعفر بن أبى طالب . وغيرهم من أبناء الصحابة أهل النفوذ فى الإسلام ممن يقيمون بالمدينة .

ويروى أن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب قدم على يزيد بن معاوية فقال له يزيد كم عطاؤك ؟ قال ألف ألف درهم قال قد أضعفناها لك . قال فداك أبى وأمى وما قلتها لأحد . قال اضعفناها لك ثانية : فقيل ليزيد أتعطى رجلا واحداً أربعة آلاف ألف درهم ؟ قال : ويحكم أنى أعطيتها أهل المدينة أجمعين فما يده فيه إلا عارية .) ثم إذا نظرنا من ناحية أخرى . نرى أنه كان فى بعث العنصرية

---

(١) كتاب الموالى فى العصر الأموى للأستاذ النجار

فى نفوس العرب الشر كل الشر على الدعوة الاسلامية وعلى قوة الامبراطورية وتآلفها وارتباطها : ففضلا عن أن ذلك فيه إهدار تام لركن هام من أركان الدعوة ، فإنه قد فتح باب الصراع المرير بين المسلمين حتى أن قيام الدولة العباسية على إشلاء الدولة الأموية لم يكن إلا بسبب وجود هذه العنصرية وما حاق بالموالى من أذى واضطهاد ومنكر لا يقره الدين . والدليل على أن بعث هذه العنصرية استعمل فى ناحيته السوء ما نذكره هنا مما يدلل على نظرة معاوية وسياسته ومدى تصوره أو هضمه الدعوة الاسلامية وهو أن الحسن بن على أعتق جارية له وتزوجها فكتب إليه معاوية يقول (من(١) أمير المؤمنين معاوية إلى الحسن بن على . أما بعد فإنه بلغنى أنك تزوجت جاريتك ، وتركت أكفاءك من قريش ممن تستحسن للولد وتمجد به فى الصهر فلا لنفسك نظرت ولا لولدك انتقيت) فرد عليه الحسن قائلا (أما بعد فقد بلغنى كتابك وتعييرك إياى بأنى تزوجت مولاتى . وتركت أكفائى من قريش فليس فوق رسول الله منتهى فى شرف ولا غاية فى نسب ، وإنما كانت ملك يمينى خرجت عن يدى بأمر التمست فيه ثواب الله تعالى ثم ارتجعتها على سنة نبيه صلى الله عليه وسلم . وقد رفع الله بالإسلام الخسيسة ووضع عنابه النقيصة . فلا لوم على امرىء مسلم إلا فى أمر مأثم ، وإنما اللوم لوم الجاهلية) وهناك ما هو أشد من ذلك فظاظة وقسوة وابتعاداً عن روح الدين وهو ما يروى (من(٢) أن معاوية دعا الأحنف بن قيس وسمرة بن جندب فقال لهما : انى رأيت هذه الحمراء قد كثرت (يقصد بالحمراء الموالى) وأراها قد قطعت على السلف . وكأنى انظر إلى وثبة منهم على العرب والسلطان . فقد رأيت أن أقتل شطراً وأدع آخر لإقامة السوق ، وعمارة الطريق فما ترون ؟ فقال الأحنف أرى أن نفسى لا تطيب أخى لأمى وخالى ومولاى وقد شاركناهم وشاركونا فى النسب . وأطرق : فقال سمرة بن جندب

---

(١) كتاب الموالى فى العصر الأموى (٢) نفس المصدر

اجعلها إلى أيها الأمير فأنا أتولى ذلك فيهم وابلغ منه فقال قوما حتى انظر فى هذا الأمر قال الأحنف فقمنا عنه وأنا خائف . وأتيت أهلى حزينا فلما كان بالغداة أرسل إلى فعلمت أنه أخذ برأيي وترك رأى سمرة).

ثم ما يروى أيضا من أن نافع بن جبير بن مطعم « قدم رجلا من الموالى يصلى به ، فلامه العرب أشـــد اللوم فقال : إنما أردت أن أتواضع لله بالصلاة خلفه » .

وكان نافع هذا « إذا مرت به جنازة قال من هذا ؟ فان قالوا قرشى قال : واقوماه ، وإذا قالوا عربى قال : وابلوتاه ، وإذا قالوا مولى قال : هذا مال الله يأخذ ما شاء ويدع ما شاء » .

ويروى أيضا أن خالد بن صفوان زوج مولى له من مولاه . ثم خطب فى هذا الزواج أمام الناس فقال « أما بعد فان الله أعز وأجل من أن يذكر فى نكاح هذين الكلبين . وقد زوجنا هذه الفاعلة من هذا ابن الفاعلة » .

هذه كلها أشياء تصور لنا المجتمع العربى فى عهد الأمويين وما اعتوره من تغير شديد عن عهد النبي وخليفتيه أبى بكر وعمر والشيء الذى نحب أن نسجله هنا ما وجد من الأثر السيء نتيجة لتهاون عثمان أولا ، وما وجد من الاعتداء الصارخ على أركان الاسلام وروحه فى عهد الأمويين والعباسين ثانيا حتى أسلمه الأخيرون إلى دور التأخر والإنحلال .

وهناك أمور على جانب هام من الخطورة غفل عنها الأمويون محافظة على كيانهم ، وتثبيتا لسلطانهم . وكانت بدورها أكبر كارثة منى بها الاسلام .

ذلك أن بغض الأمويين للموالى . واحتقارهم لهم . وعدم الاعتراف بمساواتهم فى شيء . فضلا عن أنه قضى على ركن خطير كما قلت من أركان الاسلام . وهو الركن الاجتماعى . فإنه أنشأ فى الدين بدعا جديداً ، وأحدث حدثاً يتنافر وطبيعة الاسلام . ! وهو هذه الأحاديث التى كانت تختلق اختلاقا

وتروى عن النبي عليه السلام . وذلك لتبرير عدم هذه المساواة :
من ذلك مايروى من أن النبي عليه السلام قال :

(ألا(١) لا يزوج النساء إلا الأولياء ، ولا يزوجن إلا من الأكفاء)
وما نسب إليه من قوله أيضاً (قريش بعضهم أكفاء لبعض بطن ببطن . والعرب بعضهم أكفاء لبعض قبيلة بقبيلة ، والموالى بعضهم أكفاء لبعض رجل برجل) .

كان فتح هذا الباب الذى شجعته السياسة الأموية . وهو تأييد هذه الأحاديث الموضوعة والمنسوبة إلى النبي عليه السلام شر أى شر أصيب به الاسلام..! ويكفى أن تعلم أن الأحاديث الموضوعة صارت تربو أخيراً عن ستماية ألف حديث لم يصح منها أكثر من أربعة آلاف حديث لدى البخارى ونعتقد أنه كان من أثر فتح هذا الباب وتشجيع السياسة الأموية له أن عادت إلى نفوس العرب عنجهيتها الجاهلية . وإلى نفوس غيرهم من الأمم الخاضعة لهم حقدها الدفين ، حتى أن قيام الدولة العباسية على أشلاء الأمويين لم يكن إلا بفضل الموالى وعلى رأسهم أبو مسلم الخرسانى الذى انكر نسبه فى سبيل مناهضته لدولة الأمويين ، ودعوة أهل خراسان إلى الإنقضاض عليها فاصطنع لنفسه نسباً عربياً وزعم أنه من نسل سليط بن عبد الله بن عباس . وإن كان لم يعلن ذلك إلا بعد قيام الدولة العباسية .

ثم إن هناك شيئاً على جانب كبير من الخطورة . وهو أن الأمويين كانوا يؤمنون فيما بينهم وبين أنفسهم بأن بناء دولتهم قام على أسس تتنافر والخلق الكريم . وبأن الحزب العلوى الهاشمى يصمهم بأنهم أخذوا الملك غصباً واحتيالا فلم يكن لهم مفر من أن يعتصموا بشىء يظهرون به أحقيتهم فى الخلافة ، وأنها

---

(١) كتاب الموالى فى العصر الأموى

من الامور المسلمة لهم منذ الأزل فأثاروا فى زمنهم مشكلة الجبرية ، وشجعوها وعملوا لها . حتى يبرهنوا للناس على أن هذا الملك الذى استولوا عليه كتب لهم منذ الأزل متغاضين عن نتائج ذلك ، وعما أحدثه فى الاسلام من فرقة وعما قتل فى المسلمين من حرية الرأى وقوة الإرادة . ولم تكن هذه الجبرية — أو حكم القضاء والقدر — الذى فهموه مما يتفق ونظرة الإسلام وحقيقته . وانما كان شيئاً أشبه كثيراً بمذهب الرواقيين اليونانيين ، وهو الذى يدعو إلى القعود والإستسلام ، وأن العيش ليس بالسعى ولا التدبير ، وإنما هو بالرزق والتقدير دون أن يكون لعمل الإنسان فضل فى ذلك . وأن ماقدر أو كان . كتب على الإنسان منذ الأزل . دون أن يكون له اختيار أو إرادة فيه ، وإن كان هذا المذهب لم يستكمل عناصر قوته وانتشاره إلا فى العصر العباسى .

وإذا أردنا نحن أن نلم الماما خاطفة بنظرة الإسلام إلى هذه الجبرية . نجد أنه صورها تصويراً يتفق مع العقل والمنطق . ومع ما ينشده الإنسان من سمو وراحة واطمئنان .

والذى أحب أن أكرره هنا قبل أن ألمس هذه المسألة لمساً خفيفاً هو أن من يريد أن يفهم الإسلام على حقيقته يجب أن يؤمن بانه لايتجزأ ، وبأنه مكمل بعضه بعضاً فى كافة تعاليمه وأوامره ونواهيه ويجب أن يضع نصب عينيه دائماً ما ينشده الإسلام من غايات من وراء ذلك كله .

والاسلام فى هذه المسألة كان واعياً تماماً حقيقة النفس الانسانية ، وكان خبيراً بما يعتورها من ضعف . وما تنهار به من مؤثرات . فوجد لها من هذه الجبرية حصناً ، وعلاجا يقيها شر الانهيار فالإنسان يسعى ويعمل ، فاذا قدر له الفوز فلا يتعالى ولا يستكبر ، وليحمد الله ، لأنه هو الذى كتب له الفوز وأعانه عليه وإذا أخفق فلا ينهار ولا يتحسر ، ولا يضعف ويتلاشى أمام ما يعترضه من حواجز ، وينزل عليه من كوارث ، لأن الله هو الذى أراد له

ذلك فالحمد لله فى الأولى والراحة النفسية فى الأخرى .

وإذا علمنا من جهة أخرى أن وجود الانسان ذاته خاضع لأشياء أخرى خارجة عن إرادته . وأنه يكيف حياته بعوامل ليست من اختياره وإن كانت خافية عليه وذلك لظروف البيئة . وحكم الوراثة . وأن الإنسان فى أعماله ، بل حتى فى مشاعره وإحساساته ، خاضع خضوعا تاما لأشياء ليس له أدنى حظ فى خلقها أو تفاعلها . وإنما هى مسيطرة عليه راسمة له حياته الوجودية بحكم القوانين الطبيعية . ومستلزمات الجنس والوراثة .

إذا علمنا ذلك كله تبين لنا بوضوح أن هناك قوى خفية أقوى من الانسان ترسم له حياته . وتتحكم فى تكييف وجوده .

يقول سبينوزا (إن الانسان إنما يعتقد أنه حر لأنه يجهل الأسباب التى تدفعه إلى الفعل) .

ونعود مرة أخرى ، فنأخذ فيما كنا فيه . فنقول أنه كان من أثر تشجيع الأمويين لهذه الجبرية التى رأيت أن الاسلام برىء منها أن أصبح العامة وأشباههم من جمهرة المسلمين يفهمون الدين على غير حقيقته . ويتساهلون فيما يقدم عليه الخليفة من منكر ، وفيما يأتيه من إثم . حتى أننا نجد خليفة من من الخلفاء الأمويين . وهو عبد الملك بن مروان يقتل عمراً بن سعيد حينما دعاه لزيارته ، وقد ذهب إليه فى نفر من أتباعه يبلغون الأربعة آلاف رجل أحاطوا بقصر عبد الملك بن مروان « فلما قتل عبد الملك عمراً أدرجه فى بساط وأدخله تحت السرير ، ودخل عليه حينذاك قبيصة بن ذؤيب الخزاعى ، وكان أحد الفقهاء ، ورضيع عبد الملك ، وصاحب خاتمه ومشورته ، فقال له عبد الملك ما رأيك فى عمرو بن سعيد ، فأبصر قبيصة رجل عمرو تحت السرير فقال له اضرب عنقه يا أمير المؤمنين . فقال له عبد الملك جزاك الله خيراً ، فما علمتك إلا ناصحاً أمينا موافقا . قال له : فيما ترى فى هؤلاء الذين أحدقوا

بنا ، وأحاطوا بقصرنا ؟ قال قبيصة : اطرح رأسه إليهم ، ثم اطرح عليهم الدنانير والدراهم يتشاغلون بها قال : فأمر عبد الملك برأس عمرو أن تطرح إليهم من أعلى القصر . فطرحت إليهم ، وطرحت الدنانير ، ونثرت الدراهم ، ثم هتف عليهم الهاتف ينادى : (إن أمير المؤمنين قد قتل صاحبكم بما كان من القضاء السابق ، والأمر النافذ ..!! وكان على أمير المؤمنين عهد الله وميثاقه أن يحمل راجلكم ، ويكسو عاريكم ، ويغنى فقيركم فيبلغكم إلى أكمل ما يكون من العطاء والرزق ، ويبلغكم إلى المائتين فى الديوان فاعترضوا على ديوانكم واقبلوا أمره . واسكنوا إلى عهده ، يسلم لكم دينكم ودنياكم . قال فصاحوا نعم نعم سمعا وطاعة لأمير المؤمنين » .

هكذا قد صورنا لك الاسلام فى عهد الأمويين ، ووضحنا لك نظرتهم للعقيدة الدينية ، وأنهم لم يكونوا حريصين على تثبيت قواعد الاسلام الخلقية والاجتماعية والاقتصادية قدر ما كانوا حريصين على دعم سلطانهم . وسيادة عنصرهم ، وتقوية دولتهم.

بعد ذلك ننتقل بك إلى عصر العباسيين فنستظهر سياستهم لنرى إلى أى حد تكون مسئوليتهم فيما ألم بالاسلام من عوامل التأخر ، ودواعى الانتكاس ، وأول شىء تتميز به سياسة العباسيين أنهم أنكروا على الأمويين ابتعادهم عن الدين ، وتغاضيهم عن تعاليمه فى إقامة دولتهم فآخوا بين الدين والدولة بل جعلوا دولتهم قائمة على أسس دينية محضة ، وهذا شىء عظيم جدا خطير حقا .لو أنهم أخذوا الدين صافيا خالصا مما ألم به من خرافات واختلاقات . ولكنهم أقاموا دولتهم على أسس رهبانية ينكرها الاســـلام ولا تتفق وروحه ورسالته.

ولا نحب أن نطيل كثيراً لأن غرضنا من هذا الفصل أن نستكشف الباعث الحقيقى الأول فيما أدى بالمسلمين إلى حالة التأخر والانحطاط . وقد

أريناك هذا الباعث فيما عرضنا لك مما سبق . ولكننا قبل أن نختم هذا الفصل نجب أن نسير قليلا لنعرض لك الأدوار التي مر بها الإسلام في عهد العباسيين حتى اسلموه إلى دور الانحلال

لقد علمت مما قدمناه لك أن الدولة العباسية اعتمدت في قيامها على الفرس وأن هؤلاء الفرس من الموالى بما لهم من استعداد قوى في البحث . وبما لهم من من أفق واسع في دراسة العلوم . قد اتجهوا بكليتهم عندما رأوا الأمويين هاضمين حقوقهم الاجتماعية والسياسية إلى ميدان البحث والعلم فبرزوا في ذلك أى تبريز . وسيطروا على الحركة الفكرية في الأمبراطورية العربية . وكان منهم المخلصون للدين . وغير المخلصين : وهؤلاء الأخيرون وهم الكثرة الغالبة . قد اصطنعوا في الاسلام عناصر دياناتهم السابقة من مجوسية وغيرها . وشجعهم في التغالى في ذلك أن الأمويين لم يكونوا ينظرون إلى هذه الاختلاقات في الدين نظرة الجد والصرامة . وانما كانوا منصرفين إلى تقوية دولتهم بسبيلين آخرين هما العنصرية أولا . والمال ثانيا . . ! ثم من جهة أخرى نجد أن هناك عاملين خطيرين مهدا السبيل لإضافة هذه الاختلاقات إلى الدين . وعدم محاربتها . والقضاء عليها وهى في مهدها . أولهما فتح هذا الباب أولا بيد الأمويين وهو اختراع تلك الأحاديث المنسوبه إلى النبي عليه السلام لتفضيل العرب على غيرهم من الموالى . فلم يجد الموالى مانعا من أن يدلوا هم أيضاً بدلوهم في هذا السبيل . ثانياً انضمام الموالى لحزب آل البيت . وتحالفهم معهم للقضاء على الدولة الأموية كان من الأمور التي استدعت اصطناع أحاديث كثيرة تتفق . وأغراض هذا الحزب . وأفضليته وأحقيته في الخلافة . حتى أننا نجد زعماء المعارضة للأمويين كانوا يدعون في ظاهرهم لقيام خليفة من أهل البيت . وفي باطنهم لقيام خليفة من العباسيين لتكون هذه الدولة من صنعهم فيتحكمون فيها . ويوجهون سياستها حسب ما يشاؤون . ولذلك نجد أن الظاهرة الواضحة للدولة العباسية أنها اصطبغت في ظاهرها وباطنها بالعهد

الفارسى القديم . وبما كان يسود عصر الساسانيين من ترف وبذخ ودسائس ونفاق وأوتوقراطية فى الحكم .

وإذا كانت الدولة الأموية قد اصطنعت فى الإسلام نظام الطبقات ، ونظام التمييز فى الحقوق . وذلك بتفضيلها الجنس العربى على غيره . فقد تغالت الدولة العباسية فى ذلك أشد المغالاة . وأصبحت الشعوبية الفارسية تطل بوجهها على الجنس العربى . ولم يكن الخليفة فى غالب الأحيان إلا آلة توجه وليس لها من الأمر شىء . ونسوق هنا حادثة واحدة تثبت ما نذهب إليه . وهو أن خليفة من الخلفاء لم يستطع أن يبرم أمراً أو ينفذ شيئاً إذا كان يتعارض وأغراض السياسة الفارسية (من (١) ذلك أن أبا مسلم الخرسانى وجه محمد بن الأشعث بن عبد الرحمن أميراً على فارس ، ورأى أبو العباس أن يستعمل عليها عمه عيسى بن على . فعقد له عليها ، وأمره بالمسير إليها . فلما قدم عيسى على محمد بن الأشعث أبى أن يسلم إليه ، فقال له عيسى : يا ابن الأشعث . ألست فى طاعة الإمام أبى العباس ؟ قال : بلى . غير أن أبا مسلم أمرنى ألا أسلم العمل إلى أحد من الناس . قال عيسى فإنما أبو مسلم عبد للإمام . وإن الإمام لا يرضى أن يرد أمره . قال محمد . دع عنك هذا . لست أسلم العمل إلا بكتاب أبى مسلم . فانصرف عيسى إلى أبى العباس فأخبره بذلك فكظم غيظه . وأمر عمه بالمقام عنده فأقام) .

وهكذا نرى أن الإسلام من أول عهد الخليفة عثمان بن عفان كانت تتصارع فى جسمه الحى عوامل القوة والضعف . وكان دائما بما يختزنه من حيوية زائدة يتغلب على عوامل الضعف ويطغى عليها . ويجعلها تتلاشى فيه حتى مر عهد الأمويين . وعوامل الهدم تتدافع نحوه وتتكاثر عليه إلى أن أتى عهد العباسيين ولم تكن هذه العوامل وحدها هى التى تأخذ عليه سبيله . وتعمل عملها فيه . وإنما زاد على ذلك أن اصطبغ الإسلام بصبغة رهبانية فظهرت الكهنوتية الدينية فيه ظهوراً واضحاً . وأصبح الخليفة يعتقد أنه (ظل الله فوق الأرض)

---

(١) كتاب الموالى فى العصر الاموى

وأنه يستمد سلطته من الله .. ! تماماً كما كان يزعم البابا فى القرون الوسطى . وها نحن أولاء نثبت هنا فقرات من خطاب للخليفة المنصور العباسى تظهرنا على ما كان يسود عصر العباسيين من أوتوقراطية فى الحكم ومن فهم للخلافة لا يتفق وروح الإسلام .

قال المنصور العباسى :

(أيها الناس إنما أنا سلطان الله فى أرضه أسوسكم بتوفيقه وتأييده . وحارسه على ماله أعمل فيه بمشيئته وإرادته . وأعطيه بإذنه . فقد جعلنى الله عليه قفلا انشاء أن يفتحنى فتحنى لإعطائكم . وقسم أرزاقكم وإن شاء أن يقفلنى عليها أقفلنى) .

وكان من الطبيعى أن يتحقق هنا ما تتحقق لأوربا فى عهود ظلمتها وجهلها وتأخرها نتيجة لهذا النظام الأوتقراطى ، وما يصحبه دائما من قتل للحرية الفردية . والكرامة الانسانية . ومن محافظة شديدة على الرجعية . ومناهضة كل فكرة تجديدية . ثم من محاربة مسرفة لجميع العلوم . والفنون التى تدعو إلى سنة التطور . والارتقاء .

حتى أننا إذا وجدنا فى هذا العصر العباسى شيئاً من التشجيع للعلماء والشعراء . فإن ذلك لم يكن لوجه الله . ولم يكن حقا من الواجب على الدولة نحو علمائها ونابغيها أن تمنحه إياهم . وإنما كان منحة يتفضل بها الخليفة على من يذيب نفسه . ويمتهن كرامته تملقاً له . وإشادة بفضله . وكرمه . ومجواً مراً لخصومه من السياسيين . وكان الخليفة بعد ذلك إذا شاء أعطى . أعطى من غير حساب من مال الدولة . وإذا شاء لم يعط : فلا أحد هنالك يستطيع حسابه . . !

نعتقد أننا إلى هنا قد أوفينا هذا الفصل حقه . وقد استظهرنا فيه العوامل

الحقيقية لتأخر المسلمين . مخالفين فى ذلك ما أثبتنا لهم آراءهم فى مقدمة هـذا الفصل من مستشرقين ومفكرين إسلاميين ... ونعتقد أننا لسنا فى حاجة لمناقشتهم آراءهم لأن ما عرضناه هنا فيه الرد المقنع لهم جميعاً .

بقى بعد أن عرفنا ، وألممنا بما أدى بالمسلمين إلى هذا التأخر أن نعرف السبل والوسائل التى تؤدى بهم إلى النهوض والرقى ، وإلى أن يأخذوا بنصيبهم فى مجالى التقدم الحضارى ، وإلى أن يكون لهم دورهم فى المحافظة على كيان الإنسانية ، وسعادتها وهنائها . ذلك ما سنعالجه فى الفصل الأخير من الكتاب .

obeikandl.com